الجزء الثاني

obeikandl.com

كارثة عام ١٦٤٨

في أبريل من عام ١٦٤٨، تدفقت أعداد هائلة من أبناء قبائل القوزاق من المناطق السفلى لنهر دنبرة إلى أوكرانيا، وقامت بالهجوم على بولندا من ناحية الشرق، وأبادت الجيش البولندي القابع هناك آنذاك. شجع هذا النصر الفلاحين الأوكرانيين على التمرد والانضمام إلى صفوف القوزاق. بدورهم، قام تتار القرم، الخاضعون للأتراك العثمانيين الذين كانوا في صراع طويل مع البولنديين، بمساندة المتمردين أيضا. في حملات اتسمت بقسوة منقطعة النظير امتدت لسنين طوال ، لم تتخللها سوى فترات هدنة قصيرة ولم يستطع أي من الطرفين إحراز النصر، قام القوزاق وحلفاؤهم بنهب أجزاء كبيرة مما كان يطلق عليه آنذاك بولندا وليتوانيا: إذ تم الاستيلاء على أوكرانيا وروسيا البيضاء وفولينيا وبودوليا ومناطق بجاليشيا الحمراء وكييف ومينسك وبرست ليتوفسك. تقدمت الجيوش حتى وصلت إلى لفيف. مع تقدم الجيوش ارتكبت مذابح بشعة ضد البولنديين والسكان اليهود على وجه الخصوص في المدن التي تم الاستيلاء عليها. تتراوح التقديرات لعدد اليهود الذين فقدوا حياتهم من عشرات الآلاف إلى ما يربو على ١٠٠.٠٠٠ شخص.

في ذلك الوقت، تعرض اليهود في مملكة بولندا لصنوف من الاضطهاد / وصور من العنف لم ير لها مثيلاً إلى وقتنا هذا، وظلت المعاناة والصدمة لصيقتين بالناجين منهم لمدة طويلة. لقد جاءت هذه المذبحة الدموية كنتيجة طبيعية لصراعات طويلة متراكمة. تشير الاحتمالات إلى أن القوزاق– البدو الفرسان المحاربين المنحدرين من أعراق مختلطة – ربما كانوا قد استقروا منذ القرن الخامس عشر في مناطق مختلفة بروسيا الجنوبية والتي لم يكونوا قد أحكموا السيطرة عليها بشكل كامل حينئذ. في القرن السادس عشر، أجبروا على

الخضوع للشعوب السلافية واعتبروا أنفسهم من الروس الأرثوذوكس فيما يتعلق بشئون الدين. انتهى الأمر بالفلاحين الروس ("الهاربين") الذين كانوا يفرون من التقيد بالأرض المقطعة إياهم في إمارة موسكو وهو أحد شروط العبودية – إلى الانضمام لصفوفهم. قام القوزاق بتأسيس الكثير من المستوطنات التي لا يمكن الوصول إليها بسهولة في المستنقعات والغابات الواقعة على ضفاف الأنهار الكبرى. كان الرجال القادرون على حمل السلاح يختارون قائدا لهم يسمي إيتمان وكانت تتخذ القرارات فيما يتعلق بجميع الأمور الهامة في تجمعات عامة. في القرنين السابع عشر والثامن عشر شكل القوزاق نواة الثورات العظمى المناهضة للعبودية أو التوسع في نفوذ الدولة.

من هذا المنطلق، كان القوزاق على نهر دنبرة أو القوزاق الزابروجيان– كانت أراضي "عبر النهر" في منحنى نهر دنبرة قبل مصبه في البحر الأسود تسمى "زابروجيا"– يدافعون عن أنفسهم أمام محاولات الأقطاب البولنديين استعمار أوكرانيا، فلا هم ولا الفلاحون الفارون تمنوا أن يصبحوا خدما للسادة البولنديين وربما كانوا ليجبرون أيضا على اعتناق الكاثوليكية رغما عنهم. في هذا الوقت تم التوصل إلى اتفاق يقول: إن من يزرع أراضي الستيبس (السهب) يجب أن يدرج في السجلات وبالتالي يعد حرا (ويعفى أيضا من الضرائب). رغم ذلك، حاول البولنديون إبقاء أعداد القوزاق المسجلين منخفضة والحفاظ على ولاء القوزاق لبولندا كي يبثوا بذور الفرقة بين الأطراف المتنازعة. إضافة إلى ذلك، لم يرد أحد أن يخسر الخدمات التي يقدمها القوزاق في الحروب ضد روسيا أو تركيا أو خانات تتار القرم. من وقت لآخر كان الغضب من جراء العدد المنخفض للغاية "للقوزاق المسجلين" يثير القلاقل والثورات، وقد لعبت هذه المشكلة أيضا دورا فاعلاً في تحريك أحداث عام ١٦٤٨. فقد كان للقوزاق قائد (إيتمان) قديرهو بودان شميلنكي

(من حوالي ١٥٩٥-١٦٥٧) الذي ضحى بحياته الآمنة كإقطاعي - ربما لأسباب شخصية- وتزعم الثورة. وقد قيل إن شميلنكي عين يهوديا في أملاكه ليدير مشروعا يملكه لإنتاج مشروب الشنبص وبالتالي يمكنه من زيادة عائداته/ إيراداته. بيد أن هذه الحقيقة لم تمنع شميلنكي من إطلاق العنان للكراهية التي شعر بها الكثير من الفلاحين والقوزاق تجاه اليهود: فقد عانوا الكثير على أيدي اليهود الذين كانوا أدوات تخدم طبقة النبلاء البولنديين كجباة للضرائب أو تجار أو مديري أملاك أو مستأجرين أو أصحاب حانات. كان ينظر إلى اليهود باعتبارهم أتباع كل الشرور. نتيجة لتلك النظرة، التي دعمها استخدام الدين في إثارة غضب العامة ضدهم، فقد صب الشعور العام بالمرارة جام غضبه عليهم. بطبيعة الحال، تلقى الكثيرون وعودا بنصيب في الغنيمة.

في عام ١٦٥٤ أعلن القوزاق ولاءهم لأليكسيس، قيصر روسيا في بوريسلاف (ما يطلق عليه اتفاقية بوريسلاف)، وخضعوا للأتوقراطية الروسية (حكم الفرد الواحد). وقد كان شميلنكي يأمل ،من خلال الثورة ومناوراته الدبلوماسية بين القوى المنخرطة في الصراع، أن يحصل في النهاية على جمهورية مستقلة للقوزاق يربطها اتحاد فيدرالي بروسيا وتتحد من خلال روابط شخصية مع القيصر كالحاكم الأعلى للبلاد. بيد أن الأمر الوحيد الذي تمخض عنه كل ذلك هو خطاب الرافة الذي أعاد التأكيد بشكلٍ كبير على الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها القوزاق سابقا تحت إمرة الملك البولندي كما على وجود أعداد كبيرة من "القوزاق المسجلين". لكن هذا الخطاب لم يمنح القوزاق الاستقلال فيما يتعلق بالشئون الخارجية وجعل انتخاب الإتمان أو القائد متوقفا على موافقة القيصر عليه. لقد أصبحت خطوة ضم القوزاق إلى الدولة الروسية وإخضاع الفلاحين لعبودية الإقطاع الاستيطاني مسألة وقت فحسب.

لم يكتب عام ١٦٥٤ على الإطلاق كلمة النهاية للحروب الدائرة– ومعها معاناة قاطني جميع المناطق المحترقة بأتون الحرب. استغل القيصر هذه الفرصة للتحرك ضد بولندا بمعاونة القوزاق. في عام ١٦٥٥ أصبحت السويد أيضا طرفا في هذا النزاع: استمرت السويد طرفا في هذا الصراع حتى عام ١٦٦٠. منذ عام ١٦٥٩ قامت مواجهات مسلحة ضد "القوزاق المرتدين" الذين لم تكن لديهم النية للخنوع للسلطة القيصرية. في عام ١٦٦٧ وافقت كل من روسيا وبولندا أخيرا الاتفاق على هدنة كان من نتائجها تقسيم أوكرانيا بطول نهر دنبرة. بهذه الهدنة وضعت "حروب الإغراق الدموي" أوزارها.[١٦] بيد أنها استمرت في واقع الأمر في صورة صراعات متعاقبة على السيادة في أوروبا الشرقية، وقد بلغت هذ الصراعات ذروتها في حرب الشمال أثناء حكم بطرس الأعظم والتي انتهت بتقسيم بولندا في نهاية القرن الثامن عشر.

تمثل ثورة عام ١٦٤٨ بداية التدهور العسكري والسياسي "لجمهورية (بولندية) من النبلاء يحكمها ملك" (إنجلز). في الوقت ذاته، أصبحت المنطقة التي كانت تتسم بأعلى كثافة سكانية لليهود ساحة للحرب لما يزيد على قرن من الزمان. وهنا تكررت أحداث عام ١٦٤٨ مرة أخرى مرارا وتكرارا: حيث انصبت انعكاسات الصراعات الاجتماعية والعقائدية على اليهود، وقد بلغت الأمور ذرى جديدة مع اندلاع ثورة الهايدماك– "غير النظاميين"– في عام ١٧٦٨ حين ثار الفلاحون الأوكرانيون الأرثوذوكس ضد طبقة النبلاء البولنديين الكاثوليك ووسطائهم من اليهود في خضم الصراع البولندي–الروسي. مرة أخرى، فقد الكثير من اليهود حياتهم. .

---

١٦ جورج ك. هونيش، [تاريخ بولندا] (شتوتجارت، ١٩٨٣)، ص. ١٤٨ و ١٥٠ (بعد هنريك زينكيفيتش الذي كان أول من استخدم مصطلح "فيضان" على الحرب ضد السويد عام ١٦٥٦)

على الجانب الآخر، انتهت فترةالتسامح الديني والفكري النسبي الذي كان يتمتع به اليهود. فتلك الأحداث البشعة تسببت في تأجيج لهيب المشاعر الدينية المتعصبة. ظهر هذا جليا، على سبيل المثال، فيما حدث بعد النجاح في الدفاع عن ديرأخوية القديس بول في تشيتوشوا في وجه القوات السويدية، الأمر الذي عد معجزة، حيث أعلن ملك بولندا جون كاسيمير الثاني أن السيدة مريم العذراء هي ملكة بولندا (في عام ١٦٥٦). في ظل هذا المناخ، وجد الناس صعوبة كبيرة في التسامح مع من يخالفونهم في العقيدة، فهاجمت الكنيسة الكاثوليكية اليهود بضراوة أكبر وألقت عليهم باللائمة فيما يتعلق بالكثير من الأحداث التي تعذر فهمها والتي زخرت بها تلك الأوقات المضطربة. في هذا الصدد، كان من أبرز الظواهراليسوعيون ومحاكم التفتيش الدومينيكانية، وهناك الكثير من الروايات التي تشير إلى توجيه اتهامات إلى اليهود بقتل الأطفال واستخدام الدماء البشرية في الطقوس الدينية وانتهاك حرمة خبز القربان المقدس.

تبعات الكارثة

كان على اليهود الذين نجوا في بولندا أن يتكيفوا بطريقة ما مع صدمة الاضطهاد. علاوة على ذلك، كان على هؤلاء اليهود أن يدركوا أنه بينما وقف إلى جانبهم جزء واحد من بولندا – حيث دافع عنهم أو حارب إلى جوارهم- فإن جزءا آخر منها قد تخلى عنهم بل وضحى بهم. لقد كانت هجمات الكنيسة الكاثوليكية تكسب تعاطف المؤمنين المسيحيين بشكل متزايد. كيف ينبغي أن يتصرف اليهود حيال ذلك؟ فقد أصاب الوهن المؤسسات السابقة وقطفت زهرة المعرفة. تم تدمير عدد هائل من المدارس والكليات على يد المتمردين وكذلك الكثير من مجموعات الكتب الهامة. رغم الجهود العظيمة المبذولة، لم يكن من الممكن إعادة تأسيس النظام التعليمي بنفس المستوى الرفيع الذي كان قد تمتع به من قبل. امتدت

الآثار السيئة أيضاً إلى القهال رغم أنه للوهلة الأولى على الأقل بدا وكأنه كان قادرا على إعادة تنظيم الجماعات اليهودية. في هذا الصدد تصادفنا ظاهرة مثيرة للدهشة إذ أن الكثير من النبلاء وحتى القساوسة ائتمنوا منظمات الجماعة اليهودية على أموالهم على أثر اختفاء الكثير من المؤسسات الائتمانية والمصرفية أثناء الاضطرابات. أحيانا كان يصير القهال "مصرفا" وبذلك تم استغلال دور الوسيط الذي اضطلع به اليهود ولكن بشكل جديد.

حيث أن مجالس القهال كانت تعتمد بشكل متزايد على تمويل أنفسها من خلال القيام بالأعمال المصرفية، فغالبا ما أصبحوا عالة على مودعيهم. تصدرت الحاجة إلى تحقيق الأرباح قائمة أولوياتهم وأعطت الأفضلية لهؤلاء الذين يقومون بالعمليات المالية. ظهرت أوليغاركية القهال إلى الوجود الأمر الذي لم يعد يسمح للجماعة اليهودية بالكامل، وللأعداد المتزايدة من فقراء اليهود، أن يشاركوهم في هذا الرخاء كما كان الحال في السابق. كانت الأوليغاركية الجديدة تعرف حتى كيفية الاستغلال الأمثل لتخصيص أموال الضرائب والرسوم المفروضة. تدهور القهال ليصبح "أداة للاستغلال اليهودي الداخلي". أسهم في هذا التطور حقيقة أن أجهزة الإدارة الذاتية، خاصة البرلمان اليهودي، كانت قد فقدت أهميتها في كل من بولندا وليتوانيا. في خضم الاضطرابات والحروب، أصبح الملك والنبلاء وحتى البرلمان البولندي نفسه يولون اهتماما يقل يوماً بعد يوم بالفاد الذي نادرا ما كان يستشار الآن في معظم عمليات اتخاذ القرار. في عام ١٧٦٤ تم حل الفاد بصورة رسمية. فقط خلال المرحلة الأخيرة من الدولة البولندية، في عام ١٧٨٨، سيعود الفاد ليلعب دورا مرة أخرى ولو كان لوقت قصير وحسب.

لم تعد الأمور إلى سابق عهدها أيضا على أي من الصعيدين الاقتصادي أو الاجتماعي. فظاهريا، مر اليهود في بولندا بفترة "

تماسك" سريع ففي عام ١٧٦٤ كان هناك ٧٥٠.٠٠٠ يهودي في مملكة بولندا- وهو ما يوازي حوالي ٧% من إجمالي السكان. أما الخسائر في الأرواح الناجمة عن الاضطرابات فقد "عوضتها" النسبة العالية للمواليد من جهة واللجوء إلى الهجرة من جهة لأخرى. مما يزيد الأمر دهشة أن بعض اليهود الناجين رحلوا عن أوطانهم وفروا حتى إلى الغرب. لقد نشأت الكثير من "القرى اليهودية" في ألمانيا خلال هذه العملية أو على الأقل ازداد سكانها من اليهود زيادةٍ ملحوظة. بدأت هجرة اليهود من الغرب إلى الشرق تأخذ اتجاها مغايرا. في ذلك الوقت استقر المزيد من اليهود -الثلث- في الريف وهو أكثر من عدد اليهود الذين استقروا بالريف في النصف الأول من القرن السابع عشر. فقد وجدوا أماكن شاغرة/ وظائف في أراضي النبلاء تلك التي امتدت إليها شرور الحروب. أكثر من أي وقت مضى، كان النبلاء حينذاك يستعملون اليهود كمستأجرين او إداريين. بيد أنه حتى في المدن، ناهيك عن "المدن الخاصة" بطبقة النبلاء، لعب اليهود مرة الأخرى دورا اقتصاديا هاما. بدا التعايش في إطار دور اليهود كوسطاء وكأنه يؤكد نفسه بل ويصبح أعمق من ذي قبل. زيبوسيتش بلدة قديمة سكنها اليهود منذ بداية الهجرة، وفي عام ١٦٤٨ حين حل الدمار بالبلدة أحرق المعبد اليهودي تماما وقتل كل من كان بالمدينة. وقد أمر الأمير بوتوزكي بإعادة بناء المعبد كما أعاد اليهود وأعفاهم من الضرائب والرسوم وغيرها من الالتزامات المالية لمدة ١٢ عاما نظير صيانة أملاك السيد الإقطاعي. منذ ذلك الحين، دفع كل يهودي له مبلغا سنويا قدره زلوتي واحد عن منزله ونصف زلوتي عن كل مدخنة. وقد أنيط بأحد اليهود مسئولية المنازل بصفته "مقيم" عليه أن يقرر معنى "المنزل" لأغراض فرض الضرائب. لم يكن القصابون اليهود مضطرين لذبح أي من خنازيرهم إلا كل أسبوع، في اليوم الذي يسبق يوم السبت (يوم الجمعة)، وكانوا

يحضرون لسلطات الأمراء سلة من الدهن، ولممثلي المندوب الملكي صحنا كبيرا من اللحم. اشترى الناس المنازل ، وقاموا بتنقية الملح وتخمير الجعة وصناعة النبيذ وقاموا بالتجارة بأسلوبهم ولم يخضعوا للسلطان القضائي المدينة بل للقضاة في محكمة الأمير. كان الحاخامات وممثلو المجتمع يعينون وفقا للتقاليد والتشريع اليهودي.[١٧]

مثلما حدث عند إعادة تنظيم القهال، القليلون فقط استطاعوا حقا التعافي من الكارثة على الصعيد الاقتصادي. فحتى حين كان ينجح اليهود في تولي منصب ذي نفوذ في مجال التجارة المحلية ، كانت التجارة في معظم الأحيان تتم في نطاق ضيق. مقارنة بحال الأمور من قبل، أصبح هناك عدد أقل من اليهود يتمتعون برأس مال كاف، واتسعت الهوة بين الفقراء والأغنياء اتساعا كبيرا.

لم تترك كل هذه التغيرات أسلوب حياة اليهود دون أن تمتد يدها إليها. فإضافة إلى الصدمة التي خلفتها المذابح والعداء المتنامي من المحيطين، تولد شعور بالشك لأن العالم كما هو الآن كان مختلفا تماما عما كان عليه من قبل. بلغت الصراعات الاجتماعية الداخلية ذروتها وفقدت المؤسسات المخضرمة سلطتها. حتى ردود الحاخامات، خاصة تفسير التلمود باستخدام "البيلبول" القائم على الجدل اللفظي، لم تعد في أحيان كثيرة مرضية حيث سعى الناس وراء معنى الأحداث ووراء استجابة مناسبة في وجه الأوضاع الجديدة غير المألوفة. وقد بدأ الكثيرون في البحث عن طرق جديدة. القابالاه (مدرسة فكرية لدراسة المنحى الصوفي لليهودية) لقد قدمت المعرفة الخاصة بالقابالاه التي كانت ذائعة للغاية في بولندا عونا كبيرا في البحث عن إجابات للظروف التي انتشرت في ذلك الوقت. لقد ازدهرت هذه المعرفة بفعل التقاليد التي ضمت سطورا

---

[١٧] شموئيل جوزيف أغنون، [قصة بسيطة] (فرانكفورت ، ١٩٨٧)، ص. ١٦٦ بالكامل.

متباينة من ألمانيا، وإسبانيا وفلسطين. كان للقابالاه (كلمة العبرية تعنى التقاليد) تأثير كبير على اليهودية لوقت طويل ولا يمكن على الإطلاق كما هو الحال عادة أن توصف بأنها مجرد حركة صوفية محضة. ففي ظل علاقتها الصارمة بالدين والشرائع الدينية وفي خصوصية القابالاة كضرب من ضروب الفلسفة، يمكن إدراك العناصر العقلانية المحضة التي ترتبط بتأثيرات الصوفية.

وضع الإطار التنظيمي للقابالاه للمرة الأولى في العصور الوسطى، وكانت أهم أشكالها الحسيدية الألمانية. وقد أخذت الحسيدية (من الكلمة العبرية حسيد تعني "التقي") "القيم والمثل الدينية العليا" للناس إلى آفاق أرحب.[١٨] كانت الفلسفة جزءا من الثقافة الشعبية اليهودية. كانت التعاليم التي تطورت بصفة رئيسية بين عامي ١١٥٠ و١٢٥٠- كان أشهرها تعاليم يودا الحسيدي (توفي ١٢١٧)- تعنى بشكل رئيسي بأسرار الخلق. على سبيل المثال، كانت من القضايا الخلافية بين الحسيديين إمكانية حساب نهاية الزمن على أساس العلامات الواردة بالكتاب المقدس. وقد أثارت هذه القضية مشاعر الناس كما كان المسيحيون أيضا معنيين بتأملات من هذا النوع. كانت هناك مطالب أخلاقية عالية تفرض على "التقي": إذ كان يتعين عليه أن يعرض عن العالم بزهد، ويلتزم بالنصوص الدينية وأن يمارس كلاً من حب الرب وخشيته. هؤلاء الذين أخطأوا يجب ألا يحتقروا ولكن أن يعاملوا بطريقة إنسانية. وفقا للكتاب المقدس، "في البدء كانت الكلمة". كان ينظر إلى التوراة على أنها ذات طبيعة مقدسة: إذ لا يمكن تغيير أو حذف أيّ من حروفها أو نقاطها. على هذا الأساس، جرت محاولات لاكتشاف قوة الاسم المقدس للرب بالارتباط مع عدد معين من الكلمات والحروف. اعتقد البعض

---

[١٨] جيرشوم شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية] (فرانكفورت ، ١٩٨٠)، ص. ٨٨.

أنه بهذه الطريقة يمكن أن يخرج الغوليم، وهو رجل صناعي، إلى حيز الوجود. في أحد الأشكال المتأخرة للقابالاة، ظهرت مثل هذه الأفكار والتجارب المستقاة من القابالاه في بولندا منذ حوالي عام ١٦٠٠ وقد دارت حول الحاخام إيليا واعظ تشيلم الذي توفي عام ١٥٨٣، وقد لقب "ببعل شيم" وهو لقب ترجع أصوله للقرن الحادي عشرعلى الأقل – ويعني "المتحكم بناصية الاسم". عبر هذا اللقب عن فكرة معرفته للأسماء الحقيقة للكائنات الحية وغير الحية وتمتعه بقوى سحرية. تفترض الرواية أنه قد خلق إنسانا من الطين وأحياه بعون الاسم المقدس. على جبهة هذا الانسان كتب الحاخام كلمة "إيميت" أي "الحقيقة". كان الغوليم يقوم بجميع أنواع الخدمات لكنه ازداد في الطول لدرجة أن الحاخام لم يعد يستطيع الوصول إلى جبهته ليمحو الحروف "إي" كي يتبقى كلمة "ميت" ومعناها "الموت" ويدمر بذلك الرجل الصناعي. عندما أصبح الغوليم خطيرا للغاية، وضع الحاخام خطة ماكرة: إذ جعل الغوليم يخلع حذاءه، وبالتالي استطاع الوصول إلى جبهته. لسوء الحظ، انسحق الحاخام تحت الطين المنهار ولقى حتفه (أو لحقت به إصابات بالغة وفقا لرواية مختلفة لنفس القصة). من المحتمل أن تكون هذه القصة منقولة من بولندا عن قصة الحاخام المعروف بودا لو بن بيتساليل واعظ براغ (حوال ١٥٢٠– ١٦٠٩). في هذه القصة أيضا أصبح المخلوق الصناعي خطيرا حين نسي الحاخام إزالة الورقة التي تحمل اسم الرب من على فمه قبل يوم السبت. وفي اللحظة الأخيرة، قامت الجماعة اليهودية بغناء مزامير يوم السبت ، بيد أن السبت نفسه لم يكن قد بدأ بعد– فاستطاع الحاخام لو أن ينزع اسم الرب من على فم الغوليم. ترجع جذور عادة غناء مزامير السبت مرتين في المعبد القديم–الحديث (**Altneushul**) ببراغ إلى هذه القصة. هناك عدد من المعالجات الأدبية المختلفة لهذه الأسطورة. وقد كان هناك

عدد من المحاولات للعثور على بقايا الغوليم على سطح المعبد أو في إحدى غرفه السرية. وقدٍ أصبح التقرير الذي كتبه "المراسل الحانق" إيجون إيروين كيرش شهيرا للغاية[١٩].

وقد استمرت القابالاه في إسبانيا في القرن الثالث عشر بل واعترتها بعض التغيرات. في هذا الصدد، يجب التمييز بصفة أساسية بين شكلين من أشكالها. لقد جاهد إبراهيم أبوالعافية (حوالي ١٢٤٠– ١٢٩١) كي "يفك طلاسم الروح، ويوحد بين الروابط التي تربط بينها"[٢٠]. لقد وصف إبراهيم أبو العافية في شروح متحمسة ولكنها في الوقت ذاته متعقلة كيف – بمساعدة حروف الأبجدية أو تركيبات منها– يمكن للفرد التأمل والوصول إلى حالة من النشوة كي يغمس الفرد نفسه في اسم الرب. كان من المفترض أن يسهم هذا في المسيرة نحو تحرير الإنسان. على النقيض، رفض موسى الليوني (المتوفي ١٣٠٥) طريق التأمل. يجب على المرء أن يركز تماما على كلمات الكتاب المقدس – التوراة– كي يدرس "المضامين السرية لعالم الرب ذاته". بهذه الطريقة يمكن للمرء الدخول في علاقة مباشرة مع الرب، والذي يمكن للمرء– كسر غامض– أن يتوحد مع حياته الخفية. أراد موسى أن يحافظ على "الإيمان الشعبي الساذج" بغض النظر عن تعقيداته الرمزية.[٢١] الجديد تماما في الأمر هو فكرته القائلة بأنه مع وجود الملكة الإلهة – الشخيناة– انفصل العنصر الأنثوي في الرب عن العنصر الذكوري وانه فقط من خلال الخلاص من الخطيئة تستعاد الوحدة الربانية الكاملة.

---

[١٩] جيرشوم شوليم، [حول القبالاة ورمزيتها] (فرانكفورت ، ١٩٧٣)، ص. ٢٥٥- ٢٥٨؛ وإيجون إيروين كيرش، [إحياء الغوليم] في [قصص من سبعة جيتوهات](فرانكفورت ، ١٩٨٢) من ص. ١٧٧- ١٩٤.

[٢٠] شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ١٤٢.

[٢١] المرجع السابق، ص. ٢٢٤ بالكامل.

تنعكس هذه التعاليم في إحدى قصص إسحاق باشيفيس سينجر:

إنه (ريب يومتوف)، أحد علماء التلمود، الذي كان مسئولا عن إزالة الدهن والأوردة النجسة عن اللحم الناتج (الكوشير: اللحم المحلل في الشريعة اليهودية) كانت له روح إمرأة. حين كان يصلي لم يكن يخاطب الإله كثيرا كما كان ينادي على الشخيناة، الأنثى المكملة للإله. وفقا للقابالاة، تؤدي الفضائل الإنسانية إلى وحدة الرب مع الشخيناة وكذلك مع الملائكة والكيروبيم والساروفيم أو حراس العرش والأرواح المقدسة بالجنة. بيد أن الاندماج الكامل في الجنة لن يحدث سوى بعد الخلاص من الخطيئة، مجيء المشياح.[٢٢]

على ذكر هذا الموضوع، كان لهذا المفهوم أيضا تأثير على الفهم اليهودي للحب والزواج. فمن يحقق هذا القرب من الرب في الحب المطرد (*دبيكوت*– بالعبرية: "الارتباط") فهو من *الصدوقيين* (بالعبرية: "الشخص المستقيم"). لقد وضع موسى تعاليمه التي قدر لها أن تكون المجموعة الأكثر شمولا لعناصر القابالاة، في *سفر الزوهار*، (سفر سطوع النور). سريعا ما أضحى هذا السفر إلى جانب الكتاب المقدس والتلمود، نصا تشريعيا لليهودية، رغم حقيقة أن هذا النص لم يدرّس في المدارس اليهودية "العادية" وكان أكثر الطلبة الموهوبين فقط من يتلقون تلك المعرفة "السرية".

بعد طرد اليهود من إسبانيا، برهنت القابالاة على دورها المؤثر بين اليهود الذين كان عليهم أن يتصالحوا مع هذا الحدث نفسيا وروحيا. لقد بدت التكهنات بقرب نهاية العالم واقعية– خاصة أنه في مؤلفات القابالاة الأولى كانت الحسابات تشير إلى عام ١٤٩٢ على أنه عام *الأبوكاليبس* (نهاية العالم المذكور بسفر الرؤيا). لقد جمعت القابالاة– خاصة في النسخة الإسبانية منها– عناصر المشيحانية

[٢٢] إسحاق باشيفيس سينجر، حب قديم. قصص من الحياة (ميونيخ، فيينا، (١٩٨٥) ص. ٣٨ ([كلاهما])

والأبوكاليبس اليهودية. مثلت الحركية المشيحانية لدىفيد روبيني ما يمكن وصفه بلحظة الذروة للقابالاة في العالم على نطاق أوسع. زعم روبيني أنه أمير ينحدر من قبيلة روبين ولفترة استطاع حتى أن يكسب ثقة البابا كليمنت السابع. لقد نشر أحد يهود المارانو البرتغالي (يهودي أجبر على التنصر) سولومون مولكو تعاليم الخلاص الذي كان من المتوقع ان يحدث عام ١٥٣٣. بعد القبض عليه بناء على تعليمات الإمبراطور تشارلز الخامس، أعدم مولكو على الخازوق في عام ١٥٣٢، بينما اختفى ديفيد روبيني في معتقلات محاكم التفتيش. أصبحت مدينة صفد في الجليل الأعلى (في إسرائيل الآن)، حيث قام إسحاق لوريا (١٥٣٤–١٥٧٢) بالتدريس مركزا جديدا لتعاليم القابالاة. لقد حاول لوريا أن يفهم "الخلق من العدم". وفقا له، أطلق الرب جزءا منه، و انسحب من هذا الجزء كي يترك مجالا للخلق. غير أن الشر أحدث خللاً بهذا التناسق. حين تدفق النور الإلهي إلى الكون، لم تستطع جميع الأوعية التي كان يفترض أن تلتقطه أن تتشبث به وحدث *شفيرات ها-كليم* ("تهشم الأوعية"). نتيجة لذلك، كان الشر في وضع يمكنه من الظهور. لكن في الوقت ذاته سنحت الفرصة أمام الإنسان لاستعادة التناسق الأصلي من خلال *التيقون* ("الإصلاح") والتي تضمنت الاستبطان الأصولي والصلاة والخضوع للتشريعات الدينية . لقد قام إسحاق لوريا بتدريس ما كان في حقيقته "سحر الاستبطان"،

نشوة الاندماج الهادىء، لهبوط الإرادة الإنسانية لتلتقي مع الإرادة الربانية، وفيها تعمل كلمات الصلاة كحاجز أمان. في الصلاة يتشبث المرء بقوة بهذا الحاجز كي لا يؤخذ وهو غير مستعد أو كي لا تغمره النشوة على حين غرة، الحالة التي تطبق فيها المياه المقدسة على

وعيه.[٢٣] جدير بالذكر في هذا الصدد أن هذا الفكر وصل إلى حد دراسة التساؤل الذي يشغل بال أكثر التيارات تنوعا في اليهودية : كيف يمكن للمرء التصالح مع حقيقة أن الإنسان يحمل بداخله نوازع الخير والشر وكلاهما خلقه الرب وكلاهما يجب أن يخضعا لشيء من التناسق كي يتمكن الإنسان من حب الرب؟

كانت القابالاة منتشرة في بولندا بكل أشكالها . في القرن السابع عشر تم تقديمها إلى اليهود على يد شعيا هورويتز (١٦٣٢-١٦٨٩) من كازمير بالقرب من مقاطعة كراكو. من المؤكد أن النتائج العملية التي توصل إليها لم تستقبل بحفاوة: أن "القميص من الوبر والصوم والنواح والحزن" تقود إلى الرب؛ وأنه ينبغي أن يعيش المرء في "ارتعاد وخوف وخجل وطهارة" وألا "يتبع إغراءات الجسد، ولكن صوت الروح." [٢٤] في وقتٍ الاضطهاد والخراب كان من المستبعد أن تلاقي هذه الأفكار قبولا واسعا . فقد سعى الناس وراء أمل حقيقي. نتيجة لذلك، كانت التعاليم المتصلة بالظهور الوشيك للمشياح والخلاص القريب رائجة للغاية.

المشياح في بولندا:

شبتاي تسيفي ويعقوب فرانك

بعد وقت قصير من اندلاع الموجة المدمرة من القتل والنهب التي أتت في أعقاب ثورة القوزاق عام ١٦٤٨، كثرت الشائعات بين يهود بولندا عن قرب يوم الخلاص وأن المشياح قد وطأ الأرض بقدميه

---

[٢٣] شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، صفحات ٢٨٧. ٣٠١. ٣٠٥.

[٢٤] ماريان فوكس وزيجمونت هوفمان وموريسي هورن وجيرزي توماس تسيفيسكي [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة] (وارسو، بلا تاريخ [حوالي ١٩٨٣] ص٢٦

بالفعل. اسمه كان شبتاي تسيفي. وبقلوب ملؤها التكهنات، أمل الكثيرون في أن يكون بؤسهم قد قارب على الانتهاء.

ولدٍ شبتاي تسيفي في أزمير في عام ١٦٢٦ وقد تلقى تعليماً متنوعاً شمل تعاليم القابالاة. يبدو أن شبتاي كان يعاني من الاكتئاب ثنائي القطبية (ذهان الهوس). بعد أن أعلن أنه المشياح، نبذته جماعته فهام على وجهه في آسيا الصغرى. في عام ١٦٦٤ تزوج من امرأة بولندية. بعدٍ ذلك بعام، التقى بناثان الغزاوي معتنقٍ القابالاة ذي العشرين ربيعا (١٦٤٤–١٦٨٠) والذي أقنعه بأنه حقا المشياح وأصبح بوق الدعاية له. اختار شبتاي تسيفي اثنى عشر حوارياً وعاد أدراجه إلى أزمير وحدد يوم ١٨ يونيه ١٦٦٦ كيوم الخلاص. وصف شبتاي نفسه بأنه ملك الماشيحانية، وعاش في المعبد وارتكب الكثير من الأفعال الخارجة على العقيدة اليهودية. في بداية عام ١٦٦٦، سافر إلى القسطنطينية كي ينتظر يوم الخلاص هناك. لكن السلطات العثمانية ألقت القبض عليه وقدمت له خيارين: إما اعتناق الإسلام أو الإعدام. فاختار اعتناق الإسلام، ربما ليحمي أتباعه. في عام ١٦٧٢ أدين شبتاي تسيفي بممارسة اليهودية في الخفاء والفجور الجنسي فتم القبض عليه مرة أخرى ونفي إلى ألبانيا حيث مات عام ١٦٧٦.

انتشرت التعاليم الشبتية بصفة رئيسية على يد ناثان. كانت نقطة انطلاقه من مذهب القابالاة اللوريانية خاصة أفكارها حول الخلق. وقد تعهد المشياح من خلال المعاناة الأبدية أن يعيد للأرض تناسقها الأصلي. فاستسلم للشر كي يهزمه من الداخل، بعبارة أخرى طالما كان هو نفسه "مدنس" يمكنه أن يطهر المدنسين. من ثمّ، لا يخضع المشياح لسلطة التوراة ويمكنه أن يرتكب المحرمات. حتى التخلي عن العقيدة الدينية واالردة، كل هذا يشكل جزءا من عملية الخلاص. في بولندا انتشرت هذه التعاليم بسرعة كبيرة. يبدو

أن الكثير من اليهود أحسوا أن هذه العقيدة تم وضعها خصيصاً من أجل الوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه، بينما لم تستطع اليهودية الأرثوذوكسية أن تمدهم بالإجابات الشاملة المقنعة فيما يتعلق بأحداث ومشاكل العصر. كان للحركة الشبتانية عدد من السمات المعقدة: آمال صوفية متصلة بمبررات لأسلوب حياة تلوثه الخطيئة، وفي الوقت ذاته انتهاك للتعاليم والأساليب التقليدية–*كالبيلبول* – الأمر الذي فتح الطريق أيضا أمام التفكير المستنير. كانت هذه حركة منتشرة تحمل عناصر تحريرية للغاية، وسعت في الوقت ذاته للتملص من هيمنة الطبقة الحاخامية العليا وأوليغاركية *القهال*. كانت الشبتانية – كنظيراتها من الحركات المسيحية في القرن السابع عشر والثامن عشر– جزءا من "الجدل التنويري" (هوركهايمر وأدورنو) حيث أخفق المشياح في الظهور وحتى شبتاي تسيفي لم يعد للظهور مرة أخرى، أصبحت الحركة الشبتانية أكثر تطرفا– طوال الوقت الذي استمرت في حيز الوجود– رغم أنها لفترة ما استمرأتباع جدد في الانضمام إليها. بصورة ما أصبحت الشبتانية أيضا حركة مبتذلة حيث أصبحت "أسطورة دينية للعدمية (وجهة نظر تقول أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة)". بناء على تعاليم ناثان، ظهرت افكار تدعو لما يسمى ب"الخطيئة المقدسة". من يخطيء فهو صالح ومخلص في أعين الرب، والدناسة تجتذب روح القدسية. إمعاناً في التطرف، ساد الاعتقاد أن شبتاي تسيفي قد سما بالفعل بالشر وأن كل شيء الآن طاهر. لم يعد شيء يستحق اللوم على فعله بعد الآن.[٢٥]

لقد توجت سلسلة نظريات الخلاص هذه حركة جيكوب فرانك. فرانك، المولود في ١٧٢٦ على المنطقة الحدودية لبودوليا

استشهاد أورده شوليم في كتابه [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ٣٤٦، ٣٤٧. [٢٥]

وبوكوفينا، قام بدراسة الكثير من كتب القابالاة . في عام ١٧٥٥ قدم نفسه في بولندا بصفته المشياح الجديد وخليفة شبتاي تسيفي، وسريعاً ما تجمع حوله أتباع متعصبون. قال فرانك أن الصلة بالرب ممكنة عبرمتعة الحياة والنشوة الشديدة، كما افترض أن الانتشاء الجنسي على وجه الخصوص يمهد الطريق للانتشاء الديني: إذ يمكن للمرء دخول "قاعات القداسة" عبر "بوابة الفسوق"[٢٦] . وقد شهدت الإنسانية انحطاطا تاما في الاحتفالات العربيدية الكثيرة التي أقامها الفرانكيون، "فمن يهبط إلى الأعماق السحيقة يبدو أنه الأقدر على رؤية النور."[٢٧]

كانت الردة جزءاً من "الطريق" الذي انتهجه الفرانكيون أيضاً . أدان الحاخامات فرانك لردته عن اليهودية وحياته المستهترة وأجبروه على الفرار. من المفترض أنه تحول إلى الإسلام في سالونيكا . بعد عودته إلى بولندا عام ١٧٥٥، انخرط في خلافات مع حاخامات اليهود ورجال الدين المسيحيين. بعد انقطاع طويل، عاد تقليد المناظرة الدينية العلنية وفيها استطاع اليهود عرض وجهة نظرهم. يمكن قياس قوة شخصية فرانك ومدى تأثيره من خلال حقيقة أن الملك أغسطس الثالث كان حاضرا – ربما بوصفه حتى عراب فرانك– حين تحول إلى الكاثوليكية عام ١٧٥٩ . بيد أنه بعد ذلك بوقت قصير أدين بتهمة ممارسة اليهودية في الخفاء وتم إلقاء القبض عليه وأودع بالسجن.

بعد تقسيم بولندا الأول، أطلق الروس سراح جيكوب فرانك من السجن. وقد ذهب إلى ألمانيا مارا ببوهيميا وموارفيا . في ألمانيا وعلى أقل تقدير منذ عام ١٧٨٨، عاش فرانك مع حوالي ٤٠٠ تابع

---

[٢٦] سيمون ديبنو، [تاريخ العالم للشعب اليهودي منذ البدايات الأولى وحتى يومنا هذا] (برلين، ١٩٢٨) الجزء السابع، ص. ١٩٧.

[٢٧] شوليم [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ٣٤٩.

في قلعة كونت أيزنبرج في أوفنباخ والمنطقة المحيطة بها، وقد توفى هناك عام ١٧٩١. بعد وفاة فرانك تسلمت ابنته إيف- التي تزعم الشائعات أنها ابنته غير الشرعية من الإمبراطورة الروسية إليزابيث- قيادة الحركة الفرانكية لفترة. غير أن الطائفة سرعان ما تدهورت وظهر عدد من تلاميذ فرانك فيما بعد في حركات إصلاحية. كان أشهرهم جونيوس فراي وهو أحد أقارب فرانك وقد أعدم بالمقصلة هو ودانتون عام ١٧٩٤. هنا مرة أخرى تتضح ازدواجية هذه الحركات. فقد أصبح من الواضح بشكل غامض أنه في الفرانكية كان الهدف النهائي الحقيقي هو التحرر من جميع أشكال السلطة، أولاً من سلطات الدين والعقيدة، ثم من تلك الخاصة بالعوالم الروحية والسياسية بوجه عام. لم يعد بالإمكان إجابة مطلب التحرير بتحقيق المساواة أمام القانون فحسب، ولم يرغب الناس أن يضطروا لانتظار مجيء الخلاص في وقت غير معلوم في المستقبل. كان هناك ما يبرر مطالبة الفرانكيين في كثير من الأحيان بأن تكون لهم مقاطعة خاصة بهم. بهذه الصورة برزت الفرانكية كتهديد لكل من الأخوية اليهودية وغير اليهودية. لقد أدت التعاليم الفرانكية إلى تأصيل اتجاه كان موجوداً من قبل في اليهودية يقوم على تحرير الفرد لنفسه من قيود التقاليد من خلال قوته الذاتية بدلاً من الانتظار السلبي لظهور الحلول- أو حتى قدوم المشياح- أو بالأحرى دفع هذه الأمور إلى الحدوث من خلال الجهود الشخصية للفرد الذي يسهم بذلك في التعجيل بالخلاص. إن المغزى الخاص بالفرانكية يكمن في هذا "التحول إلى الفاعلية".

لقد عكست الحركات المشيحانية أزمة اليهود- بشكل ملموس في ظروفهم المعيشية لكن أيضاً في حركاتهم الدينية وسيادة الحاخامات وهشاشة المجتمع اليهودي التقليدي. لقد ظل الأمل في الخلاص والاستعداد للقيام بأعمال إيجابية والقوة التي يمكن أن تستمد

بهذه الطريقة حياً بين يهود بولندا وكان له أثره حتى في فكر الأوساط غير اليهودية للمجتمع البولندي. بعد فشل الثورة البولندية عام ١٨٣٠ ضد حكم القيصر، ساد الرأي القائل بأن تاريخ بولندا هو "طريق الصليب" الذي سيؤدي إلى هلاك البشر أجمعين. كان من أشهر ممثلي هذا الرأي الشاعر آدم ميكيويتش (١٧٩٨– ١٨٥٥). فقد أعلن أن المشيحانية اليهودية أثرت على المشيحانية البولندية: "لم يعدم هذا الشعب الأسباب لاختيار بولندا لتكون وطنا لهم ... لقد كان لهذا الإيمان بعض التأثير على طبيعة المشيحانية البولندية."[٢٨] من ثمّ، طالب ميكيويتش بمساواة اليهود في الحقوق في محمية ثقافتهم. في هذا الإطار، تم وضع تصورات لمدينة فاضلة يندمج بها اليهود والبولنديون غير أنها بالطبع لم تتحقق على أرض الواقع. يمكن رؤية انعكاسات الحركات المشيحانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر في اشتراك الكثير من اليهود في الثورات البولندية التي اندلعت ما بين عامي ١٧٩٤ و ١٨٦٣ وفي التنوير اليهودي وفي النزوع إلى الانصهار في بوتقة بولندا وفي الابتعاد عن الدين والتوجه نحو الاشتراكية والصهيونية. علاوة على ذلك أفردت هذه الانعكاسات مجالا لعملية إعادة التفكير بين اليهود والتي لعبت فيها كل من الأفكار القابالية والمشيحانية دورا كبيرا.

الورع الشهير في الحركة الحسيدية

قبل ظهور جاكوب فرانك بوقت قصير ظهر على الساحة إسرائيل بن أليعازر المولود في بودوليا (غرب أوكرانيا) عام ١٧٠٠. أسس أليعازر حركة جماهيرية تعد الأضخم من نوعها. لسنوات عديدة سافر أليعازر كما تنقل بين عدد من الأعمال المختلفة حتى عام

[٢٨] استشهاد وارد في [كنيسة ومعبد. دليل تاريخ المسيحيين واليهود. عرض بالمصادر] المحرر كارل هاينريش رينجشتورف وسيجفريد فون كورتزفلايش (ميونيخ، ١٩٨٨) الجزء الثان، ص. ٤٥٩.

١٧٣٦ حين أصبح مشهوراً كصانع معجزات ورع يتمتع بقدرات سحرية. وقد انتشرت الكثير من الأساطير حول اليعازر. كان اليعازر يقطن في بودوليا ببلدة صغيرة تدعى ميدسيبوز. وقد نشأت حركة حسيدية جديدة على يده ويد أتباعه، حركة للتقاة تتضمن –على ذكر ذلك – الكثير من أتباع الشبتانية في السابق الأمر الذي كان له تأثير هائل. في هذه الحركة الإحيائية وجدت تقوى العامة ممثلاً لها. سريعا ما نظم أعضاء الحسيدية أنفسهم في أخويات محلية في وجه الأوليغاركية الحاخامية. بهذه الطريقة حازوا درجة من النفوذ فاقت أي حركة سبقتها من قبل.

إسرائيل بن اليعازر، الذي كان يحمل اسم *بعل شيم توف*– مالك ناصية الاسم الجيد، اسم الرب– وكانت الأحرف الأولى لاسمه "بشت"، توفى عام ١٧٦٠ ولم يخلف وراءه أية مؤلفات مكتوبة. جمعت أعماله تلاميذه. مثلت البيشت التوجه القابالي نحو التأمل في حروف الأبجدية. في رأيه لم يكن هناك مكان للشر– ببساطة كان هناك معرفة مغلوطة أو الافتقار إلى إدراك المقدس؛ الشر أصبح "عرشا للسادة"[٢٩]. رغم ذلك، من يبصر المقدس في الشر سيحوله إلى خير. نتيجة لذلك، يمكن لكل شخص أن يأمل في إصلاحه الشخصي. كما يجب ألا يخشى أحد الوقوع في الخطيئة؛ فلن تحل عليهم اللعنة. غير أن البيشت لم يريدوا محو الشر بالشر– بخلاف شابتاي تسيفسي وجاكوب فرانك– بل من خلال السعي لعمل الخير. ينبغي على الإنسان – بطريقة صوفية– أن يتشبث بالرب وأن يتقرب منه بالمحبة (*دفيكوت*) حتى –أو خاصة– في الحياة اليومية. "الإنسان هو لغة الرب" كما صاغ الأمر أحد أتباعه.[٣٠] لذا يجب

---

[٢٩] أوردها كارل جروزينجر في كتابه [الحسيدية والحسيديون] و [مصلون ومتمردون]، ص. ١٤٨

[٣٠] إيلي فيزيل [أرواح مشتعلة] ، (فيينا، ١٩٧٤)، ص. ٨٥.

على المرء أن يسعد بالرب؛ لا بالابتعاد عن العالم ولكن من خلال الأمور المادية. إن الورع الحسيدي للبشت كإن يؤكد على قيمة الحياة. كان الرقص والغناء والاحتفال جزءا لا يتجزأ من هذا الورع. انتشر الإعلاء من قيمة العثور على الذات ومعرفتها بالاتساق مع الأشياء المحيطة والتاريخ والرب. كل شخص هو مشياح في حد ذاته إلى درجة ما، كما يمكن العثور على الخلاص في كل يهودي يعيش في تناغم بهذه الطريقة.

حتى عام ١٧٧٢ كان خليفة البيشت وقائد الحسيديين هو تلميذه *الهامجيد* (الواعظ") دوف بير واعظ ميجيريك (١٧٠٤–١٧٧٢). بعد بير المؤسس الفعلي للحركة الحسيدية. من المؤكد أن تعاليمه اختلفت عن تعاليم البيشت في الكثير من المناحي: فقد كانت تعتمد بشكل كبير على العقيدة اللوريانية. في رايه، يوجد الشر إلى جانب الخير كتعددية مقدسة يجب أن توضع في تناغم مرة أخرى. لتحقيق هذا الغرض، كانت التقوى الشديدة والصمت الواعي ضروريين للتصالح مع معاناة العالم. لم يكن كل الناس قادرين على هذا، بل الصدوقيون وحدهم. صفة الصدوقيين هنا اعتراها بعض التغير فيما يتعلق بالمفاهيم التقليدية. ففي الأصل كان الصدوق "هو المثل الأعلى للشخص العادي" بينما الحسيدي هو "المثل الأعلى للشخص الاستثنائي". أما في الطريقة التي أعدت من خلال التعاليم القبالية المتعددة ولمحات من البيشت، أصبح الصدوق الآن "أعلى من الحسيدي". أما "الأشخاص الخفيون المستقيمون" فقد كانوا حالة استثنائية. هناك أسطورة ذائعة الصيت عنهم ترجع جذورها إلى الماضي البعيد غير أنها أعليت قيمتها الآن خاصة من قبل الحسيديين. تقول الأسطورة أنه في كل جيل يوجد ٣٦ صدوقيين تعتمد على مزاياهم استمرارية وجود هذا العالم. كقاعدة عامة يظل هؤلاء الصدوقيون غير معروفين. في واقع الأمر، هم أنفسهم لا

يعرفون أنهم ضمن المختارين. من ثم، لا يتسرب الغرور إلى قلوبهم. واحد فقط من بين ال٣٦ سيكشف عن نفسه حين يأتي وقت الخلاص وهو المشياح. غير أنه إن تم الكشف عنه مبكرا يجب أن يموت. يجب ألا يعرف احد من هم هؤلاء "المستقيمون الخفيون". ربما كان "جارك" أحدهم سواء كان يعيش حياة الورع أم لا.[٣١]

من المؤكد أن مفهوم الصدوقيون، كما ألقاه الهاجيد، تضمن المنحى الجماهيري: بذا تأسست صوفية النخبة التي ربما بتأثير من الفرانكية تم الربط بينها وبين عناصر للسعي وراء فرض السلطة على أتباعها. كل من هذين الأمرين أسهم في افتقار الحسيدية فيما بعد للمرونة. فقد وقف الصدوق أو الربي كوسيط بين المرء وربه. وقد اتفق هذا بشكل كبير مع الرأي المنتشر آنذاك أنه على المرء أن يثق في "الحاخامات أصحاب المعجزات" كي يكون له صلة بالرب، غير أنه من شأن هذا أن يعوق بسهولة القوة المحررة للإيمان. قال الهاجيد أن المجتمع يجب أن يساعد الصدوقي وأن يستمسك به كما يستمسك هو بالرب. في هذا الصدد كان الدعم المادي ذا أهمية كبيرة وكذلك كان الرقص والمرح حتى إلى درجة الانتشاء وكان يمكن للصدوقي أن يستمد القوة من هذا الدعم المادي. غالبا ما تدهورت هذه الفكرة إلى إنشاء "أسر حاكمة صدوقية" معينة شكلت فيما بعد مدارس مكتظة بالتابعين.

على الجانب الآخر، وصلت الصوفية إلى عامة الشعب من خلال الأنشطة الحسيدية في المجتمعات. من التطورات الجديدة الأخرى في هذا الصدد تمكين المرأة من المشاركة. لم تكن المعرفة بالتوراة- التي كان يتعين وفقا للآراء المنتشرة آنذاك حجبها عن النساء- أمرا

---

[٣١] جيرشوم شوليم، [الرغبة في المعرفة. اللاهوت اليهودي في القرن العشرين. قراءة]، تحرير شوليم بن شورين وفيرينا لينزين (ميونيخ- زيوريخ، ١٩٨٨). ص. ٣١١- ٣١٧ بالكامل.

ضرورياً للتقوى في الحسيدية. نتيجة لذلك، تمكنت النساء من تحسين أوضاعهن في الحياة العامة. على الأقل في بدايات الحسيدية شاركت المرأة أيضاً في الرقص الكوميوني أو الطائفي. فيما بعد، يبدو أن الفصل التقليدي بين الرجال والنساء قد عاد إلى الظهور مرة أخرى بصرامة أكبر رغم اختلاف درجة الصرامة باختلاف الجماعات اليهودية ودوائر الصدوقيين. بأي حال من الأحوال، من المدهش أن نسمع عن العديد من النساء العازبات – أغلبهن من الأرامل أو بنات الصدوقيين– اللائي بفضل قدراتهن الروحية تم تشريفهن بمنحهن لقب الصدوقيين. فيما يتعلق بمصادر هذه الروايات، في الغالب لا يمكن أن تتسم هذه القصص بالدقة. من تلك القصص "عذراء لادومير" الأسطورية حنا راشيل فيربرماخر (١٨٠٥/١٨١٥– ١٨٩٢/١٨٩٥) . تفيد الرواية الشفاهية للقصة أنها كانت تقيم الشعائر الدينية التي لا يقيمها سوى الرجال وأنها تلقت تعليما عاليا، حتى في الأدب القابالي. الكثيرون أصبغوا عليها قدرات سحرية وانجذبوا إلى دائرتها حيث أسست بيت ها *ميدراش* "بيت للدراسة". وقد نظر الصدوقيون المحليون بطبيعة الحال إلى هذا التطور بريبة، وتبنوا وجهة النظر القائلة بأنه يتعين عليها الزواج كي تقوم بواجباتها كامرأة. حين انصاعت لهذا المطلب في النهاية وتزوجت مرتين– لم تعد أي من الزيجتين كونها زيجة اسمية– تقلص عدد أتباعها . قضت عذراء لادومير أيامها الأخيرة في القدس في دراسة الصوفية اليهودية. ربما تعكس ردود الفعل على ظهور "عذراء لادومير الاتجاهات المتباينة في الحركة الحسيدية" . رغم أن التأكيد على أن "النساء اليهوديات حققن المساواة التامة في الحقوق

في الحياة الدينية في الحسيدية البيشتية" هو تأكيد دامغ للغاية، فإنه يشير إلى تغيرات تستحق تناولها بالدراسة بشكل أكبر.[٣٢]

كان للحسيدية صدى غير عادي لأنها عنيت بالحياة اليومية ولم تشترط الزهد أو الحزن- ناهيكم عن الوقوع المستمر في الخطيئة أو الانحطاط الشخصي (قارن بينها وبين الشبتانية والفرانكية)- بل دعت إلى السعادة والورع والأخوة والمحبة. في ظل تلك الظروف الصعبة ، في أزمة اليهود، التي لم تعد تتمتع فيها القيم القديمة بالشرعية المطلقة؛ كانت لمثل هذه الأفكار أهمية كبيرة. "كانت المعجزة أن اليهود انتابتهم فجأة الرغبة في والقوة للغناء بينما كانت السماء مزركشة بسحب بلون الدم القاني، وبدا الخطر واضحا أكثر من ذي قبل واقترب أسرع من أي وقت مضى."[٣٣] من المؤكد أن الأرثوذوكسية قاومت بضراوة هذا الخطر. فقد عانت الكثير من المجتمعات اليهودية من صدوع وانشقاقات لم يكن من الممكن رأبها . أصول الأوستيودن (يهود شرق أوروبا)

لقد نظر الكثير من المؤرخين إلى الحركة الحسيدية بوصفها مجردٍ أداة لتسفيه أفكار العامة أو قهر اليهود المتدينين. كان هذا صحيحا في بعض الأحوال. لكن من جهة أخرى تضمنت هذه المدرسة الفكرية – في كل من شكلها الأصلي وفي المحاولات المتأخرة للإصلاح عناصر تحريرية قوية لا تنطوي على خطر تغيير أسلوب الحياة. ردا على سؤال: "لماذا لم تحيا بنفس أسلوبٍ معلمك؟" كان الصدوق يرد قائلاً: "على النقيض، أنا أحاكيه تماما : فكما تخلى هو عن معلِمه، تخليت أنا عنه."[٣٤] هكذا كان الخروج عن التقاليد جزءا من

---

[٣٢] س. أ. هورودوكي، [تيارات دينية في اليهودية. مع إشارة خاصة للحسيدية] (بيرن –ليبزيج، ١٩٢٠)، ص. ١٨٣.

[٣٣] إيلي فيزيل، [أرواح مشتعلة]، ص. ١٩٠.

[٣٤]شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ٣٨٢.

القابالاة أيضاً. بالمثل، لقد سلك الهاسيد طريقاً مختلفة عن تلك التي سلكها البيشت. حتى انتقاد الرب كان أمراً ممكناً. في خضم هذا البحث الديني عن مغزى بين الرؤيا المشيحانية والتكيف الورع المعلي لقيمة الحياة مع العالم كما هو؛ في هذا الموقف الشائك ما بين الحفاظ على أسلوب حياة معين إلى جانب التحرير المزامن له من القوانين التي كان يشعر أنها بلا معنى؛ وبين هروب خانق في الغالب إلى الصوفية التي يسيطر عليها الحاخامات أصحاب النفوذ وصانعو المعجزات، لقد تشكل نموذج "اليهودي الشرقي" "كشخصية ثقافية مستقلة"[٣٥] في القرن الثامن عشر. لذلك يشير هذا المفهوم، الذي ظهر للمرة الأولى في القرن التاسع عشر وتم قبوله تدريجيا في القرن العشرين، إلى ما هو أكثر من تصنيف جغرافي، خاصة وأنه كان يوجد يهود شرق أوروبيين (أوست يودن) خارج أوروبا الشرقية بأعداد متزايدة. الأوست يود هو شخص يعلن بشكل مطرد أنه/ـا يهودي/ـة وقد تكشف هذا الأمر للعيان بعد سجال ضاري. كان للتقاليد

---

[٣٥] م. أ. [ربما ماثياس آشر، الاسم المستعار لناثان بيرنباوم]، "اليهود البولنديون ١" (١٩١٦- ١٩١٧) ، ص. ٥٦١. تصف ناثان بيرنباوم يهود شرق أوروبا بوصفهم "جماعة ثقافية منفصلة" فتقول: "عرفناهم "كتلة" ثقافية يهودية ضخمة- ربما الأضخم من نوعها على الإطلاق- تتخللها حركة داخلية ثرية في التاريخ ومتوجهة بقوة نحو الحاضر وممتلئة بالمستقبل،" [ما كنه يهود شرق أوروبا؟ معلومات مبدئية]، (فيينا، ١٩١٦)، ص. ١٥.لقد تحدث بالفعل في اول مؤتمر صهيوني عام ١٨٩٧ عن يهود شرق أوروبا وأنهم يملكون ثافةمنفصلة كشيء باد للعيان (مؤتمر الصهيوني في بازل أيام ٢٩. ٣٠. ٣١ أغسطس ١٨٩٧])لابدوأن نواصل في الكتابة عن تاريخ مفهوم أوست يودي. على اي حال يجب التشديد على أن هذا المفهوم نشأ في الاستخدام اللغوي اليهودي. حقيقة أن "أوست يودي" فيما بعد لعب دوراً هاماً كفكرة مقولبة عن اليهود في الاضطرابات المعادية للسامية لا يجب أن يؤدي إلى عدم استخدام هذا المصطلح.

والذكريات دور هام في هذا الصدد. بيد أنه لم يتعين على الأوست يودن ان يكون بالضرورة ذا فكر تحفظي. في الواقع، كان اليهودي في شرقٍ أوروبا كقاعدة عامة يرتدي رداءه المميز ويعيش حياته/ـا وفقا للتشريعات والتقاليد والشعائر الدينية التي تحترم بشكل صارم والتي ورثوها عن أسلافهم. بطبيعة الحال، هناك استثناءات كثيرة لهذا الأمر. بأي حال، تنتسب لغة إليديش إلى يهود شرق أوروبا (أوست يودن) الذين أنتجوا أيضا إبداعاتهم الأدبية والفنية إلى جانب القوانين التشريعية بهذه اللغة. استخدم الأوست يودن لغة اليديش في تعاملاتهم اليومية مع بعضهم البعض، وظلت اليهودية لغة الطقوس الدينية والتعليم. عند مقابلة غير اليهود، كان الكثير من اليهود في وضع يسمح لهم باستخدام اللغة الوطنية المناسبة. كانت أعداد قليلة للغاية منهم تجيد اللغة الألمانية – بسبب تشابهها مع اللغة اليديشية– التي كانت غالبا لغة التعليم.

كانت اليديشية الشرقية قد تطورت بالفعل إلى لغة مستقلة في القرن الثامن عشر. كان للنتيجة التي توصل إليها موسى مندلسون (١٧٢٩– ١٧٨٦) الفيلسوف اليهودي الألماني العظيم في عصر التنوير– بأن اليديشية كانت مجرد خليط من لغات مختلفة وكيهودي يجب على المرء أن يستخدم اللغة الوطنية المناسبة – كان لهذه النتيجة تأثير هائل على اليهود ذوي الميول التنويرية في الشرق خاصة في ليتوانيا غير أنها لم تلق قبولا عاما. أصبحت اليديشية اللغة الأم أو *الميلوشين* ليهود شرق أوروبا.[٣٦] في الوقت ذاته، ظهرت

---

[٣٦] سالشيا لاندمان، [اليديشية. مغامرة لغة] (فرانكفورت ، ١٩٨٦)، ص. ٥٣. ٢٣. في ما يتعلق بالبحث في اللغةوالثقافة اليديشية جاء المعهد العلمي اليديشي (YIVO) في الصدارة تأسس في برلين عام ١٩٢٥ ومع أول مقرله في فيلينوس بليتوانيا عام ١٩٤٠، نقل غلى مدينة نيويورك. منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، عاد المعهد للعمل مرة

الاختلافات الإقليمية وكان أكثرها وضوحاً الخلاف بين اليديشية الشمال شرقية في ليتوانيا وروسيا البيضاء من جانب واليديشية الجنوب شرقية والوسط شرقية في بولندا وجاليشيا الحمراء وأوكرانيا الذين خضعوا بدورهم للمزيد من التقسيم بسبب ذلك. نتيجة لذلك، كان لجميع الجماعات خصائصها الإقليمية المميزة فيما يتعلق بالملبس والعادات. لقد سهل إحياء الدور التقليدي لليهود كوسيط بين المدينة والريف) عملية تطور يهود شرق أوروبا. إبان فترة إعادة الإعمار في أعقاب الحروب العديدة والدمار الذي حل بالبلاد، لم يكن يمكن الاستغناء عن اليهود في بولندا كتجار بين النبلاء والفلاحين وقاطني المدن؛ بوصفهم "جائلو القرى" (دورفجيهير)- أو بائعون جائلون وكمقرضي أموال ووكلاء للنبلاء. هذه الوظيفة كوسطاء ميزت مناحي الحياة المختلفة عند اليهود حتى في جماعاتهم، لكن سريعا ما تكشف أن الأمور قد تغيرت بالفعل فيما يتعلق بالأساس الكامل الذي قام عليه هذا الدور.

الشتتل

المشاهد التالية التي تنتمي لأوقات متأخرة عن هذا الوقت يمكن أن تلمح إلى الواقع فقط ولكن يمكنها على الأقل أن تجعلنا نعيش الجو السائد آنذاك.

منازل خشبية في فوضى تامة حول مكان السوق ... مكتظة بالسكان مثل حواري المدن الكبرى... الشوارع معذبة كجدال في التلمود. تنحني على شكل علامة استفهام وموضوعة كجملة اعتراضية. تنتهي بجوار مسدودة كنظرية برفضها الواقع؛ يضيعون في

أخرى في فيلينوس. لقد واصل معهد التاريخ اليهودي في وارسو تليد معهد الدراسات اليهودية بالمدينة ففي جامعة كراكو يوجد معهد للتاريخ والثقافة اليهودية. في ذات الوقت تم تأسيس معاهد مماثلة في بلدان أخرى بشرق أوروبا.

مداخل الساحات أوالأفنية الخلفية أو طرقات القرية ... (في الوسط) يقع السوق بحوانيته وأكشاكه وموائده وأخشاب تقطيع اللحم. كل يوم، فيما عدا فصل الشتاء، يأتي الفلاحون والفلاحات من أماكن تبعد لأميال كثيرة ويحضرون ماشيتهم وخضراواتهم وأسماكهم وما اصطادوه من طرائد وعرباتهم المحملة بالحبوب والبطيخ والبقدونس والثوم. كشاط جانبي، كانوا يبيعون منتجات المدينة التي يجلبها اليهود. القبعات والأحذية والأحذية عالية الساق والمصابيح والزيت والمجاريف والبلطة والقمصان. اضطرام مكان السوق ... أحدٍ عجائب الدنيا.[٣٧]

استمع أيضا إلى كلمات مندل مويخر السفوريم (موخر السفوريم ١٨٣٦– ١٩١٧) في (فِيشكه القعيد) (١٨٦٩– ١٨٨٨) لوقت قصير! لا أحرك ساكنا،، أنظر حولي وأتفحص السوق السنوي. إنه يموج بالبشر فهناك حشد هائل من الناس، اليهود يتممون الصفقات رغم النبذ– فهم يحيون وحسب. هذا هو اليهودي بالنسبة لك: في السوق السنوي يكون كالسمكة التي عادت للمياه. هذا هو نبع الحياة، السوق السنوي! في الواقع،يقول اليهود إنه مكتوب عندهم: إنه سوق سنوي في الجنة. المعنى الحقيقي لهذه العبارة هو أن الفردوس بالنسبة لليهود ما هو إلا سوق سنوي! الآن بغض النظر عما إذا كانت هذه العبارة مكتوبة أم لا، كان اليهود ينتهون من السوق السنوي فيهرعون للتجارة ولا يقفون ساكنين في انتظار السوق التالي ... بل اضطرام وضوضاء. هناك يمكنني أن أرى يهودي يسرع وثاني وثالث. في أزواج يتصببون عرقا وقبعاتهم منزلقة إلى الوراء على رؤوسهم. أحدهم يربت على أكتافهم ثم يأتي شخص

---

[٣٧] صاموبل، عالم شوليم أليشيم (نيويورك، ١٩٤٣)، ص. ٢٦ بالكامل، تم الاستشهاد بها في [العالم الغارق]، تحرير جواشيم ريدل (فيينا، ١٩٨٤)، ص. ١٦.

آخر ويأتي هنا وهناك بحركات بيديه أو يعبر عن عدم رضاه عن البضائع بقلب إبهامه لأسفل ويبدو أن مضغ الخبز فكرة جيدة. إنهم يسرعون حتى لتكاد تخرج أرواحهم من أجسادهم: الوسطاء، وسماسرة الزيجات وتاجرو الخردة والنصابون ولصوص الدجاج. اليهوديات يحملن السلال واليهود من الرجال يحملن الأجولة وآخرون لا يحملون شيئًا سوى أصابعهم الخمس. أرى الأسياد الصغار ممسكين بعصي المشي الخاصة بهم وقاطني المدن ببطونهم المنتفخة. كلهم وجوههم متوهجة، لا وقت لدى أي شخص حيث تكلف كل دقيقة روبل فضيا.[٣٨]

"كان الهواء مشبعاً بالحكايات والأساطير، فكنا نتنفسها."[٣٩] غير أنه في الوقت ذاته كانت الغلبة للفقر المدقع حيث ازداد بمرور الوقت. كانت الشتيتل مراكز يهودية في بيئة غير يهودية معظمها ريفي. غالبا ما كان اليهود الأثرياء في المدن الأكبر ينظرون باحتقار إلى "الدخلاء" الذين كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع الفلاحين مثل الخلافات التي وقعت بين فقراء اليهود وأوليغاركية القهال. نجد هنا بعض التلميحات إلى صراعات اجتماعية أعمق من هذا داخل المجتمع اليهودي والذي سنراه في صورة أخرى فيما بعد.

لقد عاش اليهود في الشتيتل في وعي كامل بيهوديتهم. حتى حين عانوا من الفقر، لأن التجارة بين المدينة والريف في أعقاب التنمية الاقتصادية العامة لم تجن سوى أرباح ضئيلة وحتى حين كانوا

---

[٣٨] مينديل مويخر سفوريم Fischke der Lahme, Bettlerroman (ليبزيج، ١٩٧٨) ص. ١٩ بالكامل.

[٣٩] روزي أوسلاندر حول تشيرنوفيتش التي ولدت بها عام ١٩٠٧ أوردت في كتاب [قصص يهودية شرق أوروبية]، تحرير أولف ديداريش بالتعاون مع أوتو م. ليلين وجيرمانيا جودايكا (ميونيخ، ١٩٨٨*، طبعة جديدة، ص. ٣٣.

يتكدسون فوق بعضهم البعض في الغرفاتٍ الضيقة ولم يكن لديهم ما يلبسونه وغالبا ما اضطروا للتضور جوعا؛ كانوا فخورين بيهوديتهم وشعروا بالراحة أينما سكنوا. لإسبابٍ وجيهة أطلق اليهود على المجتمعات التي لاقت احتراما كبيرا لديهم أسماء شرفية مثل بيرديشيف "قدس فولينيا" ورذيذو التي أسموها "قدس جاليشيا الحمراء". نعم، كان فقرا بشعا لا حد له، يصل إلى درجة العبثية، بيد أنه على الجانب الآخر لم يصل إلى حد البؤس لأن أهل زابلوتوف لم يكونوا فقط مؤمنين بل كانوا موقنين أن هذا الوضع مؤقت وأنه قريبا ما سيتغير كل شيء حتى وإن دامت الفترة القاحلة لعشرات السنين، إن لم يكن قروناً- في الحقيقة منذ انتصار الأتمان القوزاقي بودان شميلنكي منذ عام ١٦٤٨. كان الرب- ربهم بطبيعة الحال- دائما ما يتدخل. تدخلاً متأخرا، متأخرا للغاية لكنه لم يكن أبدا بعد فوات الأوان. بغض النظر عن هذا، في كل لحظة كان بإمكان المرء أن يعتمد على مجيء المشياح، أي بالخلاص النهائي. ... لقد وقفوا في المعبد المضاء بالشموع، لقد تسبب الغناء الرتيب الخفيض الذي يقوم به الشباب أثناء درس التلمود في إزعاج طرفي مناظرة متحمسين أزعجهم قليلاً مثلما أزعجهم صوت الأطفال في لعبهم والذي كانوا يتحملونه بصبر أكبر لأن الكثير منهم فقد مؤخرا أما أو أبا. أصوات الغناء وصخب الأطفال ولمرات غير قليلة خلاف عال النبرة- لم يسبب أي من هذا إزعاجا لأي شخص لأن الجميع كانوا منهمكين في مناقشة كل شيء سواء كان من شؤونهم أو شؤون العالم المتسع. ... لو رجعت إلى الوراء وتدبرت أمر أولئك اليهود، حيث كنت أراهم حتى بلغت عامي العاشر، في الطرقات وفي الأسواق والمعابد وحجرات الدرس، أتذكر صوتين على وجه الخصوص: التنهد، الكثير من التنهدات والأنين وأيضا الضحك، النابع من روح

الفكاهة أو السخرية ولكن دوماً في شكل قهقهات ينضم إليها سريعاً حتى هؤلاء الذين كانوا يتنهدون أو يئنون.[٤٠]

الصلات بين اليهود وغير اليهود:

الباعة الجائلون وأصحاب الحانات من اليهود خارج الشتيتل كانت تربط بين "جائلي القرى" و الباعة الجائلين وأصحاب الحانات من اليهود أوثق الصلات مع غير اليهود. فقد كان الباعة الجائلون يعرضون بضاعتهم للبيع على الفلاحين وأحيانا في المدن وغالبا ما حملوا على عاتقهم مهام إضافية من أجل العملاء كان يتعين عليهم القيام بها في مجتمع مجاور أو مع الهيئات الموجودة بمدينة المقاطعة. من ثم، توسعت خدماتهم كوسطاء لتتعدى مجرد الأمور الاقتصادية. يجب أيضا عدم الاستهانة بحقيقة أن الباعة الجائلين غالبا ما كانوا أول من يعرّف الفلاحين بالمستجدات الحديثة في الزراعة، ويخبرهم عن الحياة الثقافية في المدن وبصفة عامة كانوا يجلبون للفلاحين الأخبار من العالم الأرحب. على الجانب الآخر، كان اليهود يطلعون أهل المدن على حياة القرى. من الأمور الجديرة بالبحث مدى تأثير الباعة الجائلين من اليهود على نظرة أهل المدن تجاه الفلاحين وتشكيل الظروف الريفية وإذا ما كانت تأثيرات القرية قد تسربت بهذه الطريقة إلى تقاليد المدن–كالمراسم والاحتفالات. بأي الأحوال قام الباعة الجائلون بدور هام في الوساطة الثقافية بين الريف والمدن. ربما يكون صاحب الحانة اليهودي التجسيد النموذجي لدور الوسيط هذا في خضم شبكة من العلاقات التي تربط بين طبقة النبلاء والفلاحين وأهل المدن. وقد انتمى ما يربو على ربع السكان من اليهود ببولندا وليتوانيا إلى هذه الفئة في القرن

---

[٤٠] مانيه شبيربير، [سقاة الرب. كل ما جرى ...] (فرانكفورت، ١٩٩٣) الجزء الأول، ص. ٢٣ بالكامل ولد شبيربير عام ١٩٠٥ في زابلوتوف في جاليشيا.

الثامن عشر. وقد أشارت إحدى الإحصاءات المنهجية- وإن كانت تشوبها بعض الإشكاليات- التي أجريت عام ١٨١٣ إلى أن حوالي ٦١% من العاملين بإنتاج المشروبات الكحولية وبيعها كانوا من اليهود. ربما كانت هذه النسبة أعلى بكثير في الشرق، خاصة في الريف. كتب هاينريش هاينه- وهو نفسه من أصول يهودية- في وصفه لرحلة قام بها إلى بولندا عام ١٨٢٢ يقول:

في بولندا يقف اليهود بين الفلاحين وطبقة النبلاء ... فباستثناءات بسيطة، جميع الحانات في بولندا ملك لليهود وكذلك الكثير من معامل تقطير الشراب. الأمر الذي يلحق ضررا كبيرا بالبلاد لأنه بذلك يدفع بالفلاحين إلى الانغماس في [الإلقاء باللوم على اليهود في ذلك الوقت- ملاحظة المؤلف]... كان لدى كل من النبلاء يهودي في القرية أو في المدينة يعينه كوكيل تجاري ينفذ كل مهامه ويقوم بعمليات الشراء والبيع والتقصي الخاصة به وما إلى ذلك.[٤١]

في فترة لاحقة لهاينريش، وصف جوزيف روث الوضع السائد لأصحاب الحانات من اليهود في جاليشيا الحمراء على حدود الإمبراطورية الروسية في روايته "الوزن الزائف" فقال:

في قرية زفابي المنتمية لمنطقة زلوتوجراد، كان لايبوش جادلوكر أكثر نفوذاً من قائد الدرك نفسه. يجب أن تعرف من كان لايبوش جادلوكر: ذو الأصول المجهولة. سرت الشائعات أنه قبل ذلك بسنوات أتى هذا الرجل من مدينة الأوديسة وأن جادلوكر لم يكن في الواقع اسمه الحقيقي. امتلك جادلوكر ما كان يطلق عليه حانة الحدود ولم يعرف أي شخص حتى كيف حاز ملكيتها. بصورة غامضة لم يحقق فيها أبدا صاحب الحانة السابقف رجل مسن ذو

[٤١] هاينريش هاينه، [عن بولندا] في أعمال هاينريش هاينه الجزء الثاني، تحرير فولفجانج برايزيندانس (فرانكفورت ، ١٩٦٨)، ص. ٦٦ بالكامل.

لحية بيضاء كالفضة مات ... كانت حانة الحدود التي يملكها مكان تجمع لجميع الأشخاص التافهين والمجرمين. ثلاث مرات بالأسبوع كان العميل الروسي المهووس الذي يعمل للصف الأمريكي كان يغرق حانة جاد لوكر بالهاربين من الجيش الروسي حتى يتمكنوا من الذهاب من هناك إلى هولندا أو كندا أو أمريكا الجنوبية. كما سبق وذكرت، كان يتردد على حانة الحدود التي يملكها جادلوكر التافهون والمجرمون كما آوى لديه المتشردين والمتسولين واللصوص والسارقين، وكان من المكر بحيث لم يستطع القانون الإمساك به. كانت أوراقه وأوراق ضيوفه هؤلاء مرتبة على الدوام. أما المخبرون الرسميون الذين تجمعوا حول حانة الحدود مثل الذباب فلم يستطيعوا الإبلاغ عن أي شيء مؤذ أو غير أخلاقي فيما يتصل بأسلوب حياته.... لم يحصل جادلوكر فقط على ملكية حانة الحدود بصورة مريبة ولكنه حصل أيضا على ملكية حانوت يبيع "المشهيات الغريبة". لكن على ما يبدو كان جادلوكر يفهم من عبارة "المشهيات الغريبة" شيئًا مميزا للغاية، لأنه لم يبع فقط الدقيق والشعير والسكر والتبغ والمشروبات الروحية والجعة والكراميل والشكولاتة والخيوط والصابون والأزرار والخيوط الملونة بل تاجر أيضا في الفتيات والرجال. كان جادلوكر يصنع أثقال الموازين الزائفة ويبيعها لتجار المنطقة وأثار اهتمام الكثيرين أنه كان يزيف النقود والفضة والذهب والورق أيضا.[٤٢]

في الفترة التي جرت فيها أحداث رواية روث، كانت أهمية صاحب الحانة اليهودي قد بدأت في الزوال بالفعل. بيد أنه استمر على ما يبدو في التأثير كشخصية عادية ومن المؤكد أنه كان لا يزال حيا في كثير من الأحيان. غالبا ما كان يجسد صاحب الحانة اليهودي رمزا سلبيا لليهودي الشرق أوروبي (الأوست يودي) الماكر

[٤٢] جوزيف روث، [الثقل الزائف. قصة مفتش على الموازين والمقاييس] (كولونيا، ١٩٧٧)، ص. ٢٦ بالكامل.

المحب للمال الذي كان يغرى الفلاحين بشرب الخمر ويقنعهم بشراء أشياء لا يحتاجونها وكان مسئولا عن وقوعهم تحت وطأة الدين. في القرن الثامن عشر، كان القساوسة الكاثوليك لا يزالون يحبون أن يصفوا الحانات اليهودية بأنها مثوى الشيطان.

نهاية التعايش

كشفت المواقف تجاه أصحاب الحانات أن أساس دور اليهود كوسطاء قد تزعزع بشكل أكبر عما كان عليه قبل عام ١٦٤٨. فقد رأى الكثير من الفلاحين في اليهود – بصورة أكبر عن ذي قبل– ممثلين لعالم غريب. الأمر الذي شعروا– خاصة في أوقات التغير الجذري على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية– أنه كان يمثل تهديدا كبيرا. علاوة على ذلك، أثارت الكنيسة الكاثوليكية مشاعر العداء الديني بجهودها المكثفة التي أصبحت تفتقر أكثر مما سبق إلى التسامح، تلك الجهود المناهضة للإصلاح التي كان بإمكانها إشعال فتيل العنف بسهولة. لقد أسفرت اجتماعات الكنيسة في القرن الثامن عشر في مناسبات عدة عن إعادة تطبيق قرارات المجلس الكنسي المناهضة لليهود التي كانت سارية في القرون الوسطى. فقد حظرت المجامع الكنسية على اليهود التواجد في الأماكن التي تمر بها المواكب أو من امتلاك خدم من المسيحيين. كما وُضعت العراقيل أمام بناء المعابد اليهودية أو ترميم ما هو قائم منها فكان يقال مثلاً أنه لا ينبغي على المعبد اليهودي أن يحجب النور عن المنازل المسيحية. كان الأساقفة في ذلك الوقت يطالبون مرارا بدفع مبالغ كبيرة كفدية مقابل عدم إغلاق المعابد اليهودية أو إعادة فتحها. غني عن القول أنه قد لاحقت اليهود اتهامات قتل البشر واستخدام دمائهم في طقوسهم الدينية مرة أخرى. بهذه الطريقة أثار الكثير من رجال الدين مشاعر الكراهية ضد اليهود بين الشعب البولندي. انتهى الأمر في عدد من الحالات بالإدانة والإعدام. بلغ الاضطهاد أوجه إلى حد

أنه في النهاية قام كل من البابا كليمينت الثالث عشر (١٦٩٣- ١٧٦٩) والملك أغسطس الثالث (١٦٩٦- ١٧٦٣) نزولاً على توسلات مبعوثين من اليهود بإدانة هذا التشهير العنيف في عام ١٧٦٣. بيد أن التحيزات التي كانت راسخة في ذلك الوقت لم يكن من اليسير اقتلاعها من جذورها بهذه البساطة. تفسر المنافسة الاقتصادية الشرسة بين اليهود والمسيحيين لماذا لاقت خطب رجال الدين الحقودة والمقالات الدينية الزائفة التي كتبوها تربة بهذه الخصوبة. فقد تجرأ طلبة المدارس اليسوعية على الاعتداء على اليهود ومعاملتهم بشكل سيء ونهب منازل اليهود. كما توقفت النقابات العمالية المسيحية عن قبول اليهود أعضاء بها ومنعوا الحرفيين اليهود من تلقي طلبيات العمل من المسيحيين. منعت المحليات أيضا التجار اليهود من ممارسة مهنتهم بشكل كبير. في الكثير من المدن لم يتمكن اليهود سوى من ممارسة الحقوق التي منحتها لهم المزايا الملكية والمزايا التي وهبها لهم النبلاء مقابل مبالغ كبيرة من الرشاوى. دوّن هذا التارجح في الظروف على سبيل المثال فيلسوف الحركة التنويرية اليهودي من ليتوانيا سليمان ميمون (١٧٥٣- ١٨٠٠) وهو أحد أصدقاء موسى مندلسون حيث قال:

ربما لم يكن من الممكن في بلد سوى بولندا العثورعلى قدر متساو من الحرية الدينية والكراهية الدينية في آن واحد. لقد تمتع اليهود هناك (في بولندا) بحرية كاملة في ممارسة شعائرهم الدينية وكذلك جميع الحريات المدنية الأخرى حتى أنهم كانوا يخضعون لسلطة قضائية خاصة بهم. من جهة أخرى، اشتدت الكراهية الدينية للغاية حتى أن مجرد اسم اليهودي أصبح مدعاة للنفور...[٤٣] ناهيك عن ضعف مركز ملك البلاد، كان موقف طبقة النبلاء عاملاً حاسما

[٤٣] قصة حياة سولومون ميمون. من تأليفه وتحرير كارل فيليب موريس. حررها حديثاً تسيفي باتشا (فرانكفورت ، ١٩٤٨)، ص. ١٣

في تدهور الأحوال المعيشية لليهود ببولندا. ففيما مضى كان الإقطاعيون النبلاء يحمون اليهود من تحالف الكنيسة الكاثوليكية وأهل المدن والنبلاء غير المهمين الذين أصابهم الفقر، على الأقل طالما كانوا سيجنون من وراء هذه الحماية النفع الاقتصادي. أما الآن فلم تعد لدى النبلاء الرغبة القوية لتقديم هذه الحماية. فقد اكتسبت الكنيسة نفوذا أكبر على اليهود أثناء حركة مناهضة الإصلاح وأخيرا أتت التحذيرات التي أطلقتها هذه الحركة ضد اليهود ثمارها. صحيح أن الإقطاعيين استمروا في تعيين اليهود كوكلاء تجاريين لهم لأنهم كانوا ذوي فائدة اقتصادية كبيرة لهم. بيد أنهم تأثرا بالكراهية التي وجهت لليهود في أوقات الاضطراب منذ عام ١٦٤٨، كان الإقطاعيون في ذلك الوقت على أتم استعداد للاستغناء عن اليهود إن أصبحت قيمتهم غير كافية. تأثرا بصورة اليهود التي تم الترويج لها على نطاق واسع نصب أعينهم في ذلك الوقت، خشي النبلاء من أن يخدعهم مديرو مزارعهم أو مستأجروهم. لذا، حاولوا التخلص منهم خاصة في أوقات الأزمات الاقتصادية.

إضافة إلى ذلك، ارتأت طبقة النبلاء في اليهود منافساً غير مرحب به فيما يتعلق بتقدمهم. من ثمّ، عمل النبلاء في القرن الثامن عشر على ألا يعين اليهود بعد ذلك في الوظائف الحكومية أو يسمح لهم بإدارة الأراضي الملكية. قامت طبقة النبلاء أيضا بالإشراف بصرامة أكبر عن ذي قبل على الالتزام بالقيود المفروضة عليهم فيما يخص السكن والمهنة التي كان قد تم فرضها من قبل. يمكن بيان إلى أي مدى لم تعد العلاقة بين طبقة النبلاء واليهود علاقة تعايش بل علاقة صراع متصاعد وكيف أمكن للمصالح المشتركة التحول إلى تضارب في المصالح من خلال المقدمة التالية لمذكرات أحد أصحاب الأراضي في فولينيا عام ١٧٧٤:

لا يزال المستأجر هيرشكو يدين لي ب٩١ زلوتي مرّ بالفعل موعد استحقاق سدادها ووجدت نفسي مضطرا لأن ألجأ للقضاء. بموجب أحد شروط العقد ، يحق لي في حال إخفاقه في الدفع أن أبقي عليه هو وزوجته وأطفاله محبوسين حتى يتم دفع الدين. لذا بالأمس أصدرت أوامري أن يقيد في الأصفاد ويوضع في حظيرة الخنازير بينما أعطيت زوجته *والباهورين* (الأطفال) تصريحا بالبقاء في الحانة. لم أحضر إلى أرضي سوى أصغر أبنائه- ليزر- وأمرت بأن يتم تعليمه كتاب أسئلة وأجوبة في العقيدة وصلواتنا. في الواقع، أظهر الولد موهبة كبيرة وأود أن أقوم بتعميده. لقد كتبت بالفعل للأسقف عن هذا الأمر ووعدني بأن يأتي إليّ لحضور مراسم التعميد كي يرافق روح الصبي (إلى الإيمان الحقيقي). في البداية كان ليزر يرفض التعميد أو تعلم صلواتنا عن ظهر قلب بيد أنه بعد أن عاقبه مدير الأرض الزراعية ستريلسكي قام حتى بتناول لحم الخنزير. كان على قس كنيستنا- بونيفيس- وهو عضو رائع في النظام الرهباني مينورام دي أوسيرفانتيا أن يناضل بشدة ليتغلب على عناد الطفل ويفوز به في عقيدتنا. بعد ثلاثة أسابيع فقط من هذا الحادث، استطاع الجيران اليهود دفع دين الأسرة.[٤٤] رغم ذلك كان اليهود في بولندا يعيشون في ظروف مواتية مقارنة باليهود في بلاد أوروبا الغربية. سليمان ميمون- الذي خبر في شبابه كيف قام الإقطاعيون النبلاء بالتغيرالكامل فيما يتعلق "بيهودهم"- كتب في مذكراته يقول:

اليهود البولنديون الذين طالما سمح لهم بتولي جميع الوظائف والذين لم يكونوا -بخلاف الحال في الدول الأخرى- مقصورين على ممارس

[٤٤] سيمون ديبنو، تاريخ الحسيدية (كونيجشتاين، ١٩٨٣- إصدار ثان للطبعة الأولى، ١٩٣١)، الجزء الأول، ص. ٣٢ بالكامل، قارن بينها وبين صفحة ٣٤.

الاحتيال والربا، نادراً ما سمعوا توبيخاً على خداعهم. لقد ظلوا مخلصين للبلد التي يعيشون بها وكانوا يعولون أنفسهم بنزاهة.[٤٥] لقد وجد اليهود أنفسهم الآن في وضع مليء بالتناقض. رغم تضاعف احتمالات التطور المتاحة أمامهم بالتأكيد، فقد أضحى وضعهم أكثر خطورة. لقد صارت الحماية التي ينعمون بها من جانب الملك والطبقة العليا للنبلاء أضعف. من ثمّ، كان وجودهم مهددا على الدوام. تماشيا مع ظروف ذلك العصر، طور اليهود أسلوب حياة خاصا بهم: من هنا تشكل نمط حياة الأوست يودي أو يهودي شرق أوروبا. في ذلك الوقت، عاد هذا بالنفع على خصومهم الذين اتهموهم باعتزال المجتمع عن عمد. أصبح الشعور بالاغتراب نحوهم أقوى وعلى ما يبدو تأكدت كل التحيزات السلبية التي روجت عنهم. في يوميات رحلته التي كتبها عام ١٨٢٢ (انظر فيما سبق) أبدى هاينريش هاينه انطباعاته:

إن المظهر الخارجي لليهودي البولندي مظهر بشع ... غير أن التقزز سرعان ما أفسح المجال ليحل محله الشعور بالشفقة بعد أن راقبت أوضاع هؤلاء الناس في المناطق القريبة ورأيت الحفر التي تشبه حظائر الخنازير التي يسكنونها وراقبتهم وهم يتحدثون اليديشية ويصلون ويتاجرون في الخيول ويعيشون بؤسهم. إن لغتهم خليط من اللغة الألمانية والعبرية في إطار من اللغة البولندية ... لم يكونوا متقدمين في الثقافة الأوروبية كما تدهور عالمهم الروحاني ليصبح مجرد خرافة غير محددة المعالم تتحطم فيها السكولاستية الجدلية (مذهب يستمسك بالتعاليم التقليدية) إلى آلاف الأشكال الرائعة. بيد أنه على الرغم من الطاقية الفرو البربرية التي تغطي رأسه

---

[٤٥] قصة حياة سولومون ميمون، ص. ٢٢٩؛ حول الظروف البائسة الأخرى في الممتلكات من الأراضي، قارن، على سبيل المثال، ص. من ١٤-٢٣، و ٣٧- ٣٩، و ٦٦- ٧٢.

والأفكار الأكثر بربرية التي تملأها، فإنني أقدر اليهودي البولندي أكثر بكثير من الكثير من اليهود الألمان الذين يرتدون البوليفار (قبعة كانت هي الصرعة في تلك الفترة- هـ. هـ) على رؤوسهم ويحملون جان بول (رواية رومانسية قرئت على نطاق واسع في ذلك الوقت- هـ. هـ.) في رؤوسهم. في عزلتها الصارخة، أصبحت شخصية اليهودي البولندي شخصية متكاملة؛ ومن خلال استنشاق هواء التسامح طبعت هذه الشخصية بطابع الحرية. ... لا زلت أفضل اليهودي البولندي الذي تفوح منه رائحة الثوم بفروه القذر ولحيته التي يملؤها القمل ومكره على الكثير من (اليهود الألمان) بكل رونقهم الذي يؤكده الأوراق الرسمية.[٤٦]

هنا يتضح كيف أصبح اليهودي البولندي في ذات الوقت مختلفاً عن اليهودي الألماني: في مظهره وفي كلامه وفي ثقافته وأسلوب تفكيره وسلوكه. لقد قدرهاينه بشكل إيجابي النمط المتكرر الذي كان يوجه كقاعدة عامة إلى اليهود على أنه أمر سلبي. لقد رأي هاينه كيف كان لتقاليد بولندا التي عمرها قرون من الزمان أثر طيب على اليهود هناك. تعبر ملاحظات وأحكام هاينه عن تنوع الظروف بصورة مثالية. رغم ذلك، أثناء هذه الرحلة كان هناك نذر تنبيء بالتحول إلى الأسوأ.

اليهود في تقسيمات بولندا

في الأعوام ١٧٧٢ و ١٧٩٣ و١٧٩٥، تم تقسيم الامبراطورية العظمى البولندية-الليتوانية جزءا بجزءً بين بروسيا والنمسا وروسيا. منذ ذلك الحين وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى لن يكون هناك بلد بولندي مستقل مرة أخرى. صدق مجلس فيينا عام ١٨١٥ على الحدود النهائية للتقسيم: بروسيا حصلت على بروسيا الغربية

[٤٦] هاينريش هاينه، عن بولندا، ص. ٦٧ بالكامل.

ومقاطعة بوزنان بينما حصلت النمسا على جاليشيا وكراكو (رغم أن كراكو في البداية ظلت مدينة حرة تحت الحكم المشترك للقوى الداخلة في التقسيم) بينما حصلت روسيا على ليتوانيا إلى جانب شرق بولندا ووسطها . ضمت الأتوقراطية القيصرية مقاطعة ليتوانيا من روسيا البيضاء وأوكرانيا وحتى البحر الأسود ولكنها شكلت مع بقية بولندا القديمة مملكة يربطها بالقيصر اتحاد شخصي في تلميح لأصوله كان يطلق عليه اسم بولندا الاتحادية. أثناء عملية التقسيم، لعبت "القضية اليهودية" بشكل متزايد دورا هاما دون أن تجد طريقها إلى الحل أبدا . قام البرلمان البولندي العظيم الذي تأسس منذ عام ١٧٨٨ والذي مثل المحاولة الأخيرة لإحداث الإصلاح الكامل على يد ما تبقى من الدولة البولندية المستقلة بإحياء *الفاد* "عامة الأمة اليهودية" . . لم يستطع الكثير من اليهود دفع الضرائب المتزايدة ونتيجة لذلك وقعت الجماعات المطالبة بسداد هذه المبالغ – *القهال*– تحت وطأة الدين. بدا أن إعادة توزيع الدخول باتت ضرورة ملحة غير أنه لم يمكن الوصول إلى تسوية مرضية في هذا الصدد . على الفور جابه البرلمان الوضع غير المستقر لليهود . في وارسو كانت القيود السابقة المتعلقة بالمسكن لا تزال سارية حيث كان يمكن لليهود السكن هناك فقط عندما كان البرلمان البولندي قائما . غير أن اليهود فكروا في وسائل للتحايل على هذه القيود . لقد أدرك النبلاء أنه من الممكن خلق مصدر جيد للدخل من هذا الوضع، فسمحوا لليهود بالاستقرار الدائم في أملاكهم خارج أسوار المدينة مقابل دفع الرسوم الضرورية. نتيجة لذلك ظهرت "قدس جديدة" إلى حيز الوجود تضم عددا كبيرا من السكان. في عام ١٧٧٥ تمكن أهالي وارسو من طرد اليهود . عندما انعقد البرلمان البولندي عام ١٧٨٨ تدفق آلاف اليهود مرة أخرى إلى وارسو وبقوا هناك لأن البرلمان ظل منعقدا لمدة أطول من المعتاد من أجل الإسراع

بالتصديق على الإصلاحات المستهدفة. في النهاية، لم يعد باستطاعة السكان المسيحيين تحمل المنافسة اليهودية التي يخشونها وفي مارس من عام ١٧٩٠ استطاعوا أن يطردوا اليهود من الحرفيين وتجارالشوارع من المدينة. لم يستطع سوى التجار الذين كان لديهم مقار لتجارتهم- أي اليهود الأثرياء- البقاء. بعودة اليهود اللمطرودين إلى ديارهم، ازدادت الإثارة وكانت أصغر الحوادث كافية لإشعال فتيل عاصفة حقيقية من أعمال النهب للمساكن والمحال التي يمتلكها اليهود في وارسو؛ عاصفة لم ينهها سوى التدخل العسكري. ناقش البرلمان البولندي (السييم) في ذلك الوقت الوضع بالكامل. في الأساس ، كانت هناك ثلاث أوضاع محتملة وكان لهذه الأوضاع الثلاث مؤيدون أيضا من غير أعضاء السييم. فهناك من تبنوا موقفا كاثوليكيا متشددا كالإقطاعي الكبير زامويسكي والذين أرادوا الحد من الحقوق الممنوحة لليهود والفرص التي تتاح لهم أكثر من ذي قبل. كان من بين ممثلي التيار المعاكس تماما على سبيل المثال جاك جيسيربسكي (١٧٢٢- ١٨٠٥) الذي قال بانه يجب تأييد اليهود لأنهم كانوا ذوي نفع كبير لاقتصاد المملكة. ما بين هذين الرأيين كان هناك العديد من الآراء المتفاوتة التي أرادت منح اليهود حقوقا مدنية والتسامح معهم وإعطاءهم مساحة كبيرة لحرية التجارة شريطة أن ينهضوا هم (اليهود) "بعملية التحديث" وأن يندمجوا في الشعب. في حال كان اليهود غير مستعدين لفعل هذا بكامل اختيارهم، عندئذ ينبغي اللجوء إلى الإكراه. كان من بين ممثلي هذا الاتجاه على سبيل المثال الخبير الاقتصادي والتاريخي تاديوس تشاكي (١٧٦٥- ١٨١٣) الذي اعتقد أنهم بهذه الطريقة يمكنهم منع الزواج المبكر والتخلص من الملابس المميزة لليهود وإلغاء الممارسات الدينية "المؤذية" وتقليص استقلالية مجالس *القهال* والمطالبة باستخدام اللغة البولندية بدلا من اليديشية على الأقل في المخاطبات الرسمية وقصر أنشطة اليهود على

الحرف اليدوية والزراعة وأشكال التجارة "النزيهة" التي لا تتضمن امتلاك أو إدارة الحانات. كان يتعين على اليهود شراء المساواة في الحقوق وكان الثمن هو تقاليدهم وثقافتهم- وهو الاتجاه الذي يمكن رؤيته في الكثير من البلاد في ذلك الوقت. رغم تأييد الكثيرين- حتى أن الملك ستانيسلاف الثاني أغسطس بونياتوفيسكي (١٧٣٢- ١٧٩٨) - الذي ربما أظهر هذه النوايا الطيبة مقابل حصوله على حافز مالي ما- قد تدخل من أجل حصول اليهود على المزيد من الحقوق. لكن القرار قوبل بالرفض من جانب المناهضين لليهود. وقد تجاهل دستور مايو ١٧٩١- وهو الأول من نوعه في أوروبا بالكامل- هذه المشكلة. اتضح أن طبقة النبلاء لم تعد تقف إلى جانب اليهود بل في الحقيقة أصبحت تعدهم ضمن خصومها. على أي حال، فإن التقسيم الثاني والثالث لبولندا جعلا من أي محاولات جديدة أبعد من هذه بلا طائل. لم تفتقر هذه الفترة للبراهين على وطنية اليهود، فالكثير من اليهود شاركوا في ثورة ١٧٩٤ بزعامة تاديوس كوسيوسكو (١٧٤٦- ١٨١٧) للدفاع حتى عن وارسو. في النهاية تم تشكيل فيلق يهودي تحت إمرة بيريك جوسليفيتش. كان من المنتظر أن ينجح هذا الإسهام اليهودي في النضال التحرري بإقناع البولنديين بأنهم يمكنهم التعايش جنبا إلى جنب مع اليهود ومنحهم حقوقا متساوية. بعد قمع الروس لهذه الثورة، استطاعت فلول الفيلق اليهودي الوصول إلى فرنسا بعد مغامرات غير عادية حيث انضموا إلى الفيلق البولندي وشاركوا تحت قيادة نابوليون في خلق إمارة وارسو. في عام ١٨٠٩، سقط جوسليفيتش الذي أضحى كولونيل في الجيش البولندي صريعا في الحرب التي دارت ضد النمسا. وقد وافق دوق وارسو الذي كان في ذات الوقت ملك ساكسونيا في سخاء على السماح لأرملة وأطفال جوسيلفيتش أن يقيموا في شوارع وارسو؛ الأمر الذي كان محظورا على اليهود آنذاك،

كما سمح لهم إن اضطرتهم الظروف "ببيع شراب الشنابص".[٤٧] كان هذا امتيازا يذكر. في البداية راودت اليهود آمال عظيمة فيما يتصل باتفاقٍ نابليون. فقد منحهم التصديق على ميثاق الحقوق المدنية حقوقا مساوية. كما بدا وأن نابليون كان يرغب في العمل مع ممثل رسمي لليهود- "السنهدرين العظيم" على نسقٍ المحكمة القضائية والتشريعية العليا اليهودية القديمة. غير أنه سريعا في مارس ١٨٠٨ قام نابليون بتأجيل عملية التحرير بفرنسا لعشر سنين. على الفور سعى البولنديين المعادون لليهود لاستغلال هذه الفرصة وفي أكتوبر من عام ١٨٠٨ قاموا بالتعجيل بإصدار قرار مواز. بيد أن الاستثناءات كان مسموحا بها رغم أن هذا كان يحدث في أضيق الظروف. في عام ١٨٠٩ صدر قرار في وارسو فحواه أنه يجب على اليهود الانتقال من المناطق الراقية بالمدينة. في ١٦ مارس ١٨٠٩ تأسس الجيتو في وارسو والذي سرعان ما تكرر تأسيسه في المدن الأخرى كنموذج للمؤسسات المشابهة. في بواكير عام ١٨٠٨، فرضت الخدمة العسكرية الإلزامية على اليهود: وبينما تم حرموا من حقوقهم، فرضت عليهم المزيد من الواجبات. كان هذا الإجراء على وجه الخصوص مؤلما لليهود المتدينين لأنه كان يعني عدم إمكانية أداء الشعائر الدينية بعد الآن. وقد تقدم الكثير من زعماء الحركة الحسيدية بالتماسات إلى الحكومة لإلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية وعرضوا في المقابل التنازل عن الحقوق المدنية ودفع غرامة مالية كبيرة. في الوقت ذاته انخرط الكثير من اليهود في المقاومة السلمية وأثاروا العديد من المشاكل، لذا ألغيت الخدمة العسكرية الإلزامية في عام ١٨١٢ وبدلا منها فرض على اليهود دفع ضريبة دفاع باهظة. في عام ١٨١٥، حين أصبحت مملكة بولندا تحت الحكم

[٤٧] ديبنو، تاريخ العالم، الجزء الثامن، ص. ٣٤٠ بالكامل.

الروسي، جرت محادثات جديدة بشأن "القضية اليهودية" في إطار المناقشات الدستورية. ومرة أخرى تجاهل الدستور اليهود. في الوقت ذاته، كانت القوانين في المادتين الحادية عشرة والثانية عشرة اللتان نصتا على أنه لا ينبغي اعتبار الدين الإسرائيلي على قدم المساواة مع المسيحية ووجوب فصل المؤسسات الدينية والمدنية عن بعضهما البعض تمثلان تدخلاً صارخا في الحياة اليهودية. على الجانب اليهودي، بدأت الآراء التي سبق مناقشتها تطفو على السطح مرة أخرى. وقد وضع الزعيم السياسي في تلك الفترة، الأمير آدم جيرزي تسارتوريسكي (١٧٧٠-١٨٦١) الاندماج- فيما عدا الدين- شرطا للمساواة. كان اليهود "شعبا غريبا" وكان على المرء تحريرهم من "عدم النضج الفكري" والقهر، غير أنه لم يكن من الممكن منحهم حقوقا مدنية كاملة. كان يتعين منع الحانات اليهودية لأن تناول الكحوليات "كان له تلك العواقب الوخيمة على الطبقات الدنيا"[٤٨] كانت هناك مزاعم أن اليهود يحثون الفلاحين على الشرب ومن ثمّ يدمرونهم على الصعيدين المالي والجسدي. ببساطة، لم يكن بوسع المسيحيين فعل هذه الأمور. كان هناك من هم أكثر تعصبا من ذلك. فرجل الدين الكاثوليكي ستانيسلاف ستازيتش (١٧٥٥-١٨٢٦) الذي قام بالفعل أثناء مناقشات المرحلة الأخيرة للدولة البولندية الحرة بنعت اليهود بأنهم "طاعون الجراد الذي أصاب البلاد في كل من الصيف والشتاء" وبأنهم "عبء من الطفيليات" ظل هذا

---

[٤٨] حول المناقشات والمقترحات الواردة هنا وفيما بعد يمكن العثور على هذه الاستشهادات في كتاب جيرجن هينسيل "أمة بولندية من النبلاء والوسطاء اليهود من ١٨١٥- ١٨٣٠. عن المحاولة الفاشلة لتحرير اليهود في مجتمع غير متحرر"، تاريخ شرق أوروبا المهجور ٣٢ (١٩٨٣)، ص. ١٧٩، ١٨٠، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٦؛ ديبنو، تاريخ عالم، الجزء الثامن، ص. ٣١٧، ٣٦٤.

الرجل على رأيه ونعت اليهود بأنهم "متشردون وعاطلون" ولا يمكن للمرء التعايش معهم. كانت هذه الأنماط التقليدية المنطبعة في الأذهان التي استمرت في تشكيل صورة اليهود حتى القرن العشرين تظهر في ذلك الوقت بصفة متكررة. وقد ذهب كاجيتان كوزميان (١٧٧١– ١٨٥٦) أبعد من غيره في عام ١٨١٧ حين قال:

من الخطأ الاعتقاد بأن التلمود وحده يجعل منهم يهودا: فنمط حياتهم أيضا يسهم في هذا ... فهم يؤمنون بالخرافات، وجهلة، ومتشردون، وتجار، وصرافون، وفي العموم يبذلون قصارى جهدهم لتجنب العمل بأنفسهم والعيش من كد الآخرين ودفع ثمن حياة مريحة من خلال المكر والخديعة. في الواقع لقد قال إن اليهود ليسوا بولنديين حيث أن "الدم البولندي" لا يسري بعروقهم. رغم أنه شخصيا آمن أن ما اعتبره هو أنشطة وساطة يهودية سلبية يمكن أن يأخذ شكلاً إيجابيا وأن الاندماج والتكامل الكلي لازالا ممكنين، فقد غرس موقفه بذور النبذ العرقي لليهود. وجهت الهجمات العنيفة ضد اليهود بشكل خاص إلى جهود مندوب بولندا المعين من قبل القيصر، السيناتور كونت نيكولاي نيكولايفيتش نوفوسيلتسيف (١٧٦١– ١٨٣٦)؛ تلك الجهود التي لا تبين في الدستور. كان الكونت في روسيا قد أصبح بالفعل عضوا في "لجنة مصلحة اليهود" والتي أعدت قانونا تم إقراره عام ١٨٠٤ بشأن اليهود في الإمبراطورية القيصرية. لم يأل نوفوسيلتسيف جهدا للتوصل إلى حل عادل. بيد أنه من المؤكد لم يرغب في أن يقطع الشوط الذي قطعه رجل الدولة الروسي الكونت ميخائيل ميخائيلوفيتش سبيرانسكي (١٧٧٢– ١٨٣٩) في عام ١٨٠٣ والذي رغم تمتعه بنفوذ شديد في ذلك الوقت لم يكن باستطاعته يقينا أن يتوصل إلى إقرار أفكاره:

إن الإصلاحات التي قدمتها الدولة في عمومها غير دائمة ولا يمكن التعويل عليها في الحالات التي يتعين فيها على الحكومة النضال ضد

عادات جرت لقرون من الزمان. لذا، قد يبدو أن الأمر الأكثر ملائمة والذي يمكن التعويل عليه بشكل أكبر هو معاونة اليهود على تحسين أنفسهم والاقتصار على مجرد فتح السبل التي تفيدهم أمامهم والإشراف على تحركاتهم فقط عن بعد وإبعاد اي شيء من شأنه أن يضلهم عن هذا الطريق دون استخدام أية قوة أو إنشاء أية مؤسسات خاصة. بدلاً من العمل من أجلهم (اليهود)، يجب معاونتهم على التطور. الحد الأدنى من الحظر والحد الأقصى من الحرية، هذان هما العنصران الرئيسيان لكل ترتيب اجتماعي.

في البداية قام نوفوسيلتسيف بعرقلة صدور قرارات مجحفة لليهود، وأخيراً في عام ١٨١٧ تقدم بمشروع "قوانين شاملة لليهود المقيمين في مملكة بولندا". بموجب هذا القانون يتمتع اليهود المتعلمون والأثرياء بكافة الحقوق المدنية ومن ثم يمكنهم تولي مناصب حكومية وسياسية. وفقاً لهذه القوانين يمنح يهود آخرون حقوقاً مدنية أقل خاصة فيما يتصل بالنشاط الاقتصادي. بدلاً من *القهال*، يكون هناك مجلس إدارة يتولى رئاسته حاخام قوي. كان نوفوسيلتسيف يرغب في السيطرة على الحسيدية وغيرها من "المذاهب". بموجب هذا القانون، تظل الجالية اليهودية مسئولة عن دفع الضرائب وتقديم حصتها من المجندين. فوق كل هذا، تنبأ نوفوسيلتسيف بالتوقف عن منح اليهود رخص جديدة للحانات وحظر الإتجار بالدين أو المقايضة وكذلك بيع البضائع في الريف. وقد أراد نوفوسيلتسيف أن يتم تعيينه شخصيا "وكيلاً ملكيا للأعمال" في شئون القضية اليهودية كي يحمل طبقة الإقطاعيين من النبلاء على التصديق على تفاصيل قانونه هذا وبطبيعة الحال ليوسع من نفوذه.

بيد ذلك، أبى النجاح أن يحالف حتى مندوب القيصر. فالنبلاء البولنديون- مثلهم مثل المواطنين البولنديين بالمدن المستقلة- لم يكونوا مستعدين للتضحية بمصالحهم. في الوقت ذاته، أصبح اليهود منافسين

اقتصاديين للفريقين ولم يعودوا وسطاء بينهما ولو لمصلحة النبلاء. إضافة إلى ذلك، كان هناك تأثير القوى المحافظة في روسيا والتي كانت تعرف كيفية الحُول دون إجراء إصلاح مؤيد لليهود.

رد فعل اليهود على الظروف السياسية والفكرية والدينية الجديدة

إن كلمات اليهود أنفسهم في هذه المناقشات هي كلمات مثيرة للاهتمام. كما ذكرت مسبقا، أن تابعي الحسيدية كانوا على استعداد للتنازل عن الحقوق المدنية مقابل الاحتفاظ بعاداتهم وثقافتهم ونمط حياتهم. على أي حال، كان الكثيرون منهم غير مهتمين بالسياسة : "قام الروس والبروسيون والنمساويون بتقسيم بولندا بينهم ولكن أعضاء الحسيدية الروسية قاموا بزيارة الحاخام النمساوي وأعضاء الحسيدية النمساوية زاروا بدورهم الحاخام في روسيا."[٤٩] حتى اليهود الأرثوذوكس والوليغاركية *القهال* لم يزعجوا أنفسهم على وجه الخصوص بتحسين ظروفهم المعيشية. كانوا يخشون من أن المساواة الكاملة ستضر بوضعهم السياسي والاجتماعي. في هذا الصدد تمنوا أحيانا أن ينالوا مساعدة القيصر ألكسندر الأول (١٧٧٧– ١٨٢٥). على الجانب الآخر، أراد مؤيدو التقسيم الطيقي الصارم للمجتمع إلغاء القهال والاندماج مع الإدارة المدنية للبولنديين. في ذلك الوقت عادت الأفكار التنويرية لتحتل الصدارة. على سبيل المثال مندال ساتناور (يعرف أيضا باسم مندال ليفن، ١٧٥٠– ١٨٢٣)، والذي أجرى اتصالات مع مندلسون وميمون في برلين ثم أصبح معلما في منزل الأمير آدم تسارتوريسكي، أيد الإصلاح التعليمي الجذري والتحسينات المادية لجماهير اليهود. لقد ناضل ساتناور بضراوة ضد الحسيديين الذين في رايه أبقوا على الناس في غياهب الجهل. لقد جازف اليهود

[٤٩] سينجر، حب قديم ("جوشنا وشميلكه")، ص. ١٧ بالكامل.

"المتنورون" الذين فضلوا الاندماج –*الماسكيليين* أو "المفكرون"– والذين تواجدوا في الطبقة الثرية من المجتمع جازفوا بمصائرهم مع حزب الإصلاح البولندي وفي مقدمتهم الأمير تسارتوريسكي. في نهاية عام ١٨١٥ تقدموا بأفكارهم هذه إلى القيصر وبعدها تمتعوا ببعض النفوذ على ممثله نوفوتشيلشيف. لقد كانت نقطة انطلاقة *الماسكيلين* هي التحيزات المسبقة في المجتمعات غير اليهودية وكانوا على استعداد لقبول نظام قانوني يفرق بين طبقتين من طبقات المجتمع. الطبقة الأولى طبقة "الإسرائيليون المميزون" –أي هم– تحصل على كافة الحقوق، بينما جمهور اليهود الذين "يتمسكون بردائهم المميز وعاداتهم" لا يحصلون سوى على "الحقوق المدنية المعتادة" لأن "ظروفهم ومعرفتهم محدودة"[٥٠]

تنوعت مواقف اليهود ما بين الرغبة في الحصول على حقوق مساوية للبولنديين ولو حتى على حساب الخسارة الثقافية وبين نبذ هذه الحقوق والدعم الاقتصادي من أجل العيش بالطريقة التي ألفوها. لقد عكس هذا التباين الانقسام الديني الذي ظهر إلى حيز الوجود في القرن الثامن عشر. من جانبهم قام الحسيديون بمسيرة النصر الخاصة بهم بشكل أساسي في جنوب وجنوب شرق بولندا الذي أصبح الآن يعرف باسم جاليشيا النمساوية وأوكرانيا. في كل مكان دارت صراعات ضارية مع الاتجاه الحاخامي *والمسناجدين* الأرثوذوكس– "الخصوم". قام الحسيديون الذين تمنوا ان يروا "أسرار الرب التي توجد في أشياء بسيطة" بتوبيخ *الميسناجدين* لإغفالهم "الجذور الحقيقية" للأشياء في غمار "الدراسة المفرطة." لها[٥١] لقد

---

[٥٠] هينسيل، "أمة بولندية من النبلاء"، ص. ١٧٤ بالكامل (مذكرة ١٨١٥) تختلف التفصيلات حول تواريخ

[٥١] شموئيل يوسف أجنون، المنبوذ (فرانكفورت ، ١٩٨٨)، ص. ١٠٨- ١٠٩.

نبذ كل من الفريقين أتباع الفريق الآخر من الجماعات اليهودية المختلفة وجرت الكثير من المواجهات الدامية. أدت هذه الخلافات المريرة إلى تحويل النهج الأصلي وحتى التحرري للحسيديين في كثير من الأحيان إلى نهج متصلب طبقي للغاية تبنى المذاهب القديمة لأسر الصدوقيين الحاكمة وفكرة "الحاخامات صانعي المعجزات". مرارا وتكرارا كان هناك انتقاد لتنامي جماعة *الصدوقيين*. على سبيل المثال رغب حفيد البيشت- الحاخام نامان واعظ براكلوف (١٧٧٢- ١٨١٠) - بتعاليمه وحكاياته الرمزية في العودة إلى الاقتراب من الناس والتقوى الداخلية. في ذات الوقت، في خضم البحث الدؤوب عن الله ومحاولات الإسراع بالخلاص المتأثرة بالشبتانية والفرانكية، وجدت الشكوك طريقا لها في المواعظ الدينية مما دفع بالكثيرين إلى التوجه للتقدميين.

اتخذ الصراع بين الحسيديين *والمستاجدين* في روسيا البيضاء وليتوانيا مظهرا عنيفا بلغ أوجه في فيلنا (تسمى الآن فيلنيوس في ليتوانيا)، "قدس ليتوانيا". كانت فيلنا معقل الحاخامية المذهبية ولكنها كانت أيضا معقل التنوير اليهودي المتأثر بالألمانية أو ما يسمى الهاسكالاة. وقد قاومت جميع الاتجاهات الورعة في اليهودية- مهما اشتدت معارضتها لبعضها البعض- هذه التطور بوصفه "شيطان من الجحيم". كان يطلق على أتباع هذا الاتجاه "البرلينيين". نتيجة لذلك، كان تأثيرهم في هذه المناطق- آنذاك - محدودا قبل انتهاء القرن. كان المرجعية المتفق عليها للحاخامية هو إليشا بن سولومون (١٧٢٠- ١٧٩٧) *الجاون* أو "القيّم" (الروحي) في فيلنا الذي هاجم الحسيدية منذ البداية قائلاً: في الحسيدية تطغى المشاعر بينما ينبغي أن يقوم الدين على الالتزام "بالشرائع". يجب التوصل إلى هذه الشرائع من خلال دراسة التلمود غير أنه بمجرد العثور عليها يجب اتباعها في طاعة عمياء. بدلا من الطريقة التقليدية - *البيلبول*- التي

غالباً ما تثير الارتباك، قام إليشا بوضع طريقة موضوعية للتحليل لتفسير التلمود.

كان الخصم الرئيس لإليشا، الحاخام شنوير تسالمان (١٧٤٨–١٨١٣) إصلاحيا كذلك. حاول تسالمان تجديد الحسيدية وقد كان يعظ قائلاً إنه يجب على الفرد ألا يستسلم فقط لمشاعره بل أن يضعها أيضا قيد السيطرة الواعية. لفعل هذا كان من الضروري دراسة التوراة، لا من أجل الالتزام التام بالشرائع ولكن من أجل التقرب من الرب من خلال الكلمة المقدسة. يجب على الجميع الخضوع لمناح ثلاث – الحكمة (*هوخاما*) والفهم (*بينا*) والمعرفة (*دعت*)– للروح القدس. سمي هذا الاتجاه باسم مكون من الحروف الأولى للكلمات العبرية الثلاث المقابلة لهذه المفاهيم فعرف باسم حسيدية *هاباد*. كان شنوير تسالمان ينتمي إلى جماعة من المصلحين الذين تخلوا عن النزوع المفرط إلى الطقوس الطائفية وممارسة السحر وسعوا إلى العودة للتعاليم البسيطة والإيمان الشعبي. بناء على هذا لم يمكن *للصدوق* سوى أن يصبح بطلاً للمؤمنين.

في مايو ١٧٩٦، بعيد فترة قصيرة من التقسيم الثالث لبولندا حين كان الحسيديين يبادرون بالهجوم مرة أخرى، قام إليشا جاون بإحياء ودعم حركته السابقة لفرض الحرمان الكنسي على "المهرطقين". فقد رأي أن وحدة الدين عرضة للخطر. وقد رفض جاون بفظاظة طلبا لإقامة مناظرة تقدم به شنوير تسالمان. في ذلك الوقت كانت العديد من الجماعات اليهودية تشهد صراعات دموية. بعد هذا بعام توفى الجاون وأصرت الحسيدية في فيلنا على الاحتفال بوفاته. بمشاعر طاغية ملؤها الرغبة في الانتقام، كرر *القهال* في فيلنا قرار الحرمان الكنسي ورفض قادة الحسيديين من السلطات القيصرية زاعما أنهم سيثيرون القوى المعادية للدولة. في هذا الوقت لم يكن هناك سوى آثار طفيفة للتعاليم الدينية في هذا النزاع. في عام

١٧٩٨، تم إلقاء القبض على عدد من الحسيديين غير أنهم استطاعوا إقناع السلطات ببراءتهم. حتى أن القيصر بول الأول (١٧٥٤–١٨٠١) اهتم بالمسألة. بعد إطلاق سراحهم، خطط الحسيديون للثأر بأنفسهم. من خلال توجيه تهم الرشوة والابتزاز، استطاع الحسيديون أن يتسببوا في إقالة الأعضاء الكبار بـ*القهال* وانتخاب حسيديين أو من يتعاطف معهم بدلاً منهم. انقسمت الجماعة اليهودية على نفسها وألقى كل فريق على الآخر أفظع الاتهامات. تم إلقاء القبض على شنوير تسالمان مرة أخرى ولم يطلق سراحه إلا بعد انقلاب القصر عام ١٨٠١ الذي أتى بالكسندر الأول لتولي مقاليد السلطة. كان قانون ١٨٠٤ بشان اليهود الروس أيضا رد فعل على هذه الصراعات: نجح الحسيديون الآن في أن يكون لهم معابدهم وحاخاماتهم الخاصة بهم. بيد أنه في الوقت ذاته ظلت إدارة *القهال* قائمة.

الإمبراطورية القيصرية واليهود

قبل تقسيمات بولندا، كان يتم قمع المسألة اليهودية بشكل اصطناعي في الامبراطورية الروسية. في الأصل في روسيا كييف لم يكن هناك عداء ضد اليهود على وجه الخصوص. كان من الممكن للمرء مصادفة التجار اليهود في كل مكان وعلى ما يبدو كان اليهود يعيشون في مستوطنات أيضا. كان هذا الأمر ذا صلة بغزو دولة الخزر. فيما سبق، كما قد ذكرنا جماعة خزر كييف التي اعلنت عن إيمانها باليهودية الحاخامية والصراعات التي شهدتها عام ١١١٣. بيد أنه كلما ازدادت قوة الكنيسة الأرثوذوكسية، تكشفت نزعات مناهضة لليهودية أكثر وأكثر. لكن بخلاف ألمانيا أو بولندا، لم تجد أفكار الحروب الصليبية أو أساطير استخدام الدماء البشرية في الشعائر الدينية صدى كبيرا لها في روسيا.

في "روسيا موسكو" في أواخر العصور الوسطى وبواكير الحداثة، قويت شوكة الحركات المعادية للسامية التي تدعمها الدولة. هناك روايات عديدة تحكي أنه بعد الإطاحة بنظام الحكم المنغولي وبدء الدولة الجديدة في التوسع، اضطر اليهود في الأراضي التي تم غزوها إلى أن يتخلوا عن دينهم أو يقتلوا. وصلت هذه الأعمال الوحشية إلى ذروتها تحت حكم القيصر إيفان الرابع (١٥٣٠– ١٥٨٤) الذي حظر التجارة اليهودية خوفا من تقلص الأورثوذوكسية الروسية في غمار الدين الغريب. وقد لعبت العلاقة الوثيقة بين الأوتوقراطية القيصرية والكنيسة الأرثوذوكسية الروسية دورا هاما في هذا الصدد. فقرب نهاية القرن الخامس عشر، انتشرت الحركة الهرطقية *جودايزر* (المتهودين) من نوفجورود. رغم الجدل الثائر حول أهمية هذه الحركة فإنه يمكن استغلالها كمناسبة أو مبرر للموقف المعادي للسامية الذي تبنته كل من الأرثوذوكسية والدولة الروسية. الأمر المؤكد هو أن الصراعات الداخلية على النفوذ الكنسي في هذا الوقت قد لعبت دورا هاما أيضا. تم قمع حركة المتهودين بوحشية. بيدأنه قرابة منتصف القرن السادس عشر، قام الراهب فيودوسي كوسوي الذي فر هاربا من روسيا بالتشدق بأقوال مهرطقة مماثلة في ليتوانيا. ربما كان لهذا أثر مباشر على إيفان الرابع. رغم أنه في بولندا مثل المتهودون إلى جانب حركة العسكرية المناهضة للإصلاح أساسا لشعارات معادية للسامية، قام الناس في روسيا بصفة متكررة بالخلط بين اليهود والبولنديين الذين كانوا غالبا في حروب معهم. اشتد هذا الأمر أثناء فترات الاضطراب في بداية القرن السابع عشر. في وقت من الأوقات كانت القوات البولندية تحتل موسكو، وفي عام ١٦١٠ تم انتخاب الأمير البولندي فيلادسلاف (١٥٩٥– ١٦٤٨) لمنصب القيصر رغم أنه لم يستطع اعتلاء العرش أبدا. كان المطالبون بالعرش الذين تقدموا في عدة مواقف بمزاعم زائفة بأنهم أبناء القيصر

ينعتون من آن لآخر بأنهم "يهوديو" المولد لتشويه سمعتهم. على الجانب الآخر كان هناك على الدوام جماعات يهودية صغيرة في روسيا وبصفةٍ رئيسية في المدن الكبرى. كان التجار اليهود أول من أسس أعمالا هناك.

منذ منتصف القرن السابع عشر انقلبت الأمور رأساً على عقب. أصبحت الإمبراطورية الروسية قوة عظمى على حساب بولندا وضمت إلى أراضيها المزيد من الأراضي البولندية- الليتوانية على أثر حروب عديدة. لم تكن هناك تحت حكم بطرس الأعظم (١٦٧٢- ١٧٢٥) أية حركات معادية للسامية، فقد حكم كرجل عادي من عصر التنوير يتسم بالتسامح الديني؛ الأمر الذي تغير في عهد خلفائه. لقد تأرجحت السياسة في القرن الثامن عشر ما بين محاولات لطرد اليهود من الأراضي الخاضعة لروسيا – كانت أولى المحاولات عام ١٧٢٧ – والتي كانت جزءا من بولندا في الماضي وما بين إجراءات من أجل إبطال قرارات الطرد هذه لمبررات اقتصادية بشكل أساسي. كانت أقوى أوامر الطرد قد صدرت عن القيصرونة إليزابيث (١٧٠٩- ١٧٦٢) في عام ١٧٤٢. عندما تقدم تجار ريجا بشكوى في مجلس الشيوخ مشيرين إلى السلبيات الاقتصادية التي نشأت حين توقف الوسطاء من اليهود عن العمل بالتجارة مع بولندا وصدق مجلس الشيوخ على هذا الرأي نفسه في التماس لها، ردت القيصرونة عليهم قائلة: "لا أريد أرباحا من أعداء المسيح."[٥٢] في عام ١٧٤٤ قامت إليزابيث بحظر زيارة روسيا على اليهود.

كان لهذا النبذ لليهود أيضاً مناحيه الإيجابية. لأنه كان هناك إلى حد ما عدد قليل من اليهود، لم يكن من السهل للأنماط المعادية

[٥٢] جون دويل كلير، روسيا تحشد يهودها. أصول "المسألة اليهودية" في روسيا، ١٧٧٢- ١٨٢٥ (ديكالب، إلينوي، ١٩٨٦) ، ص. ٣٤.

للسامية كتلك التي كانت شائعة في بولندا أن تنتشر في روسيا بنفس السرعة مما سهل الأمور أمام السياسات التنويرية المؤيدة لليهود التي انتهجتها القيصرونة كاثرين الثانية (١٧٢٩– ١٧٩٦) . في عام ١٧٦٣ وبعد عام من توليها السلطة قامت كاثرين في البداية بتجديد الحظر السابق. في ظل الظروف الغامضة للانقلاب الذي تزعمته والذي أسفر عن اغتيال زوجها بطرس الثالث (١٧٢٨– ١٧٦٢)، كانت كاثرين بحاجة إلى دعم الكنيسة ولم تستطع أن تدخل في نزاع معها . بعد التقسيم الأول لبولندا عام ١٧٧٢، أصبح اليهود سكانا للإمبراطورية الروسية على نطاق واسع ولم يعد من الممكن وضع المشكلة في جانب واحد . كان ينبغي التعامل مع المسألة اليهودية بوسيلة غير الحظر والطرد .

في عام ١٧٧٢ في إطار سياستها الاستعمارية، سمحت كاثرين لليهود بزيارة روسيا دون قيود معينة. لقد قويت شوكة البراجماتية الاقتصادية والسياسية التي تنتهجها بشكل كبير بأثر التفكير التنويري. لم يكن لفلاسفة التنوير أية تحيزات دينية ضد اليهود؛ بل أرادوا أن يجعلوا منهم مواطنين صالحين لهم نفس الحقوق والواجبات التي لغيرهم رغم أن هذا جاء على حساب تدمير الاستقلالية والثقافة اليهودية. لقد صادفنا من قبل هذين الجانبين للتنوير بين الإصلاحيين البولنديين. يجب تحرير الناس من ظلمات الخرافة والتحيز أما هذا التحرر من "عدم النضج الذي يجلبه المرء لنفسه" (كما كتب كانت في أولى جمله بمقاله المعنون "إجابة لسؤال: ما هو التنوير؟") فقد يعني أن "الحضارة" فرضت فرضا وأن أساليب الحياة القائمة تم "استعمارها" (هابيرماس) . بدأ الملوك المتنورون أمثال فريدريك الثاني من بروسيا (١٧١٢– ١٧٨٦) أو جوزيف الثاني من هابسبورج (١٧٤١– ١٧٩٠) في منع المعاملات التجارية التي كانت تعد "غير مثمرة"– كالبيع المتجول وإدارة الحانات وتقطير

الشراب – لإلغاء الحق في الاستقلال وللتحكم في جميع مناحي حياة رعاياهم. علاوة على ذلك، جلبت كاثرين إلى روسيا أفكاراً حول تقسيم صارم للطبقات الاجتماعية – طبقة النبلاء ورجال الدين وأهالي المدن المستقلة والفلاحين الأحرار والخدم– التي ببساطة لم تلائم البلاد. فعلى سبيل المثال، كان الفارق بين الريف والمدينة في روسيا أقل منه في الغرب كما ظلت الحدود بين أهل المدن والفلاحين متغيرة من آن لآخر. عندما قامت كاثرين آنذاك بتأسيس الكثير من المدن الجديدة، ومنحت المدن القائمة ذات الأسواق الصغيرة ترخيص المدن وأصدرت قراراً مؤسساً للنقابات العمالية على أمل خلق مجتمع مدني منظم؛ كانت بذلك تخالف التقاليد الروسية. من ثم، ذهبت معظم هذه الإجراءات طي النسيان. بيد أنه بالنسبة لليهود كانت لهذه الإجراءات انعكاسات هامة. وفقاً لنظرة كاثرين للمجتمع، كان اليهود من حيث أنشطتهم الاقتصادية السائدة ينتمون إما لطبقة أهل المدن ذات الحكم الذاتي بوصفهم تجاراً (كوبتسي) أو لطبقة المواطنين من الطبقة الدنيا (ميشخاني). رغم ذلك، فإن اليهود في معظمهم قد عاشوا في الريف. لذا، فإن ما كان يقصد به أن يكون تحريراً أصبح في نهاية الأمر جارحاً للغاية.

علامة أخرى من علامات التنوير كانت الإشارة إلى اليهود في ذلك الوقت في الوثائق الروسية بكلمة "العبريين" (إيفري) بعبارة أخرى كجماعة دينية، بينما استخدمت كلمة "يهودي" (زيد) والتي ترتبط بها الخصائص القومية لليهود في اللغة الدارجة أو بغرض الإهانة والانتقاص من قدرهم. على اي حال، بعد تقسيم بولندا الأول، ساوت السياسة القيصرية في البداية بين اليهود وغيرهم من فئات المجتمع الأخرى. تمخضت الحاجة إلى ضمان جباية الضرائب المطلوبة وتحقيق درجة معينة من السيطرة الاجتماعية التي لم تكن البيروقراطية كافية لضمانها عن السماح لليهود بالاحتفاظ باستقلالية

مجالس *القهال* – مثلهم في ذلك مثل حق الأوبشينا أو كوميونية الفلاحين في الحكم الذاتي في حدود. لفترة قصيرة، سبقت روسيا جميع الدول الأوروبية الأخرى فيما يتعلق بمنح حقوق مساوية لليهود. بيدأن الحقوق المساوية جلبت معها أيضا قوانين جديدة. على سبيل المثال في عام ١٧٨٢ صدر أمر لأول مرة يلزم "أهل المدن"– الفئة التي تتضمن اليهود بشكل واضح– بأن يعيشوا في المدن. أتاح هذا الأمر إمكانية نقل اليهود من الريف إلى المدينة. بعد هذا القرار بعام منح حق تقطير الكحول لملاك الأراضي الزراعية الكبيرة فقط. في البداية كان لازال بوسع الإقطاعيين الكبار تأجير حقوقهم من الباطن لليهود، لكنهم نجحوا في استغلال القوانين الجديدة لإكراه اليهود على ترك مجال العمل هذا. سرعان ما حاول الناس التحايل على الحقوق الممنوحة لليهود. في البداية لم تلق هذه المحاولات نجاحا يذكر، لكن بمرور الوقت وخصوصا بعد التقسيم الثاني والثالث لبولندا حين انضمت أعداد أكبر من اليهود إلى رعايا القيصر، اتخذت خطوات أكثر في الاتجاه المعاكس. على سبيل المثال، منذ عام ١٧٩٤ فرض على اليهود في مقاطعات معينة – شأنهم شأن غيرهم من الأقليات الدينية – دفع ضعف مبلغ الضرائب ليساعدوا في دعم الأحوال المالية للدولة بعد الحروب العديدة التي خاضتها.

استجابة لشكاوى تجار موسكو من أن منافسة اليهود المتدفقين إلى البلاد في ذلك الوقت زادت من صعوبة الأمور عليهم بشكل كبير؛ أعلنت كاثرين الثانية في ٢٣ ديسمبر ١٧٩١ منع اليهود من العيش في أراضي روسيا الأصلية. اضطر اليهود أن يلتزموا بالعيش في المناطق التي ضمت حديثا من بولندا وما أطلق عليه "روسيا الجديدة" وأجزاء من سواحل البحر الأسود ضمت من تركيا ويجب إقامة مستعمرات بها. لطالما اعتبرت هذه الحركة نقطة البداية لسياسة

معادية لليهود بشكل واع. بيد أنه على الأرجح كانت هذه الإجراءات تقصد حماية تجار موسكو أكثر منها التمييز ضد اليهود. لم يتم إبعاد اليهود عن موسكو لأنهم يهود بل لأنهم يمثلون منافسة لا حاجة إليها. علاوة على ذلك، تم تقييد حرية حركة معظم فئات السكان بالإمبراطورية الروسية. رغم كل ذلك، بقرارها هذا، وضعت كاثرين أسس ما يطلق عليه اسم "مقاطعة الاستيطان" التي لم يكن باستطاعة اليهود، إلا في بعض الحالات الاستثنائية، مغادرتها حتى الحرب العالمية الأولى.

تم تأسيس المقاطعة بصفة رسمية في روسيا بموجب "قانون اليهود" الذي تمت صياغته منذ فترة طويلة وتم التصديق عليه عام ١٨٠٤. عبر هذا القانون عن وجهة النظر – التي أصبحت في الوقت ذاته سائدة بين الصفوة من الروس – أنه يجب "تحسين" اليهود أولا ودمجهم بالمجتمع قبل منحهم الحرية. على سبيل المثال بعد فترة ست سنوات ينبغي على اليهود كتابة حساباتهم المصرفية فقط "بلغة رسمية" غير يهودية ويجب على أصحاب المكاتب ألا يرتدوا ملابسهم بالأسلوب اليهودي. منحت لليهود حرية التجارة والعمل باستثناء إدارة الحانات وما شابهها من أنشطة الوساطة التي يزعم أنها أفسدت الفلاحين. تعويضا عن هذا قدم القانون لليهود فرصة إعمار الأراضي بمعونة الدولة بصفة رئيسية في "روسيا الجديدة". في واقع الأمر كانت هناك مبادرة موازية في مقاطعة خيرسون أيضا حيث انتقل إلى هناك عدة آلاف من اليهود غير أنهم وجدوا ظروفا فوضوية للغاية وتجهيزات غير كافية من قبل السلطات فاضطروا لترك المشروع عام ١٨١٠.

علاوة على ذلك، فقد تبنت السياسة المتنورة الاستبدادية للقيصر ألكسندر الأول فكرة كاثرين الثانية بوجوب مغادرة اليهود للقرى التي يعيشون فيها جنبا إلى جنب مع الفلاحين المسيحيين. برر

ألكسندر تصرفاته على أساس حماية الفلاحين من "الاستغلال" اليهودي. مرتان، في عام ١٨٠٨ وعام ١٨٢٣ قامت الدولة بإعادة توطين جبري لليهود. غير أنه في المرتين أخفقت في إكراه اليهود على ذلك. جثم أمر إعادة الاستيطان هذا على صدر اليهود القاطنين في القرى كخطرٍ مستمر وجرت محاولات مماثلة في مناطق متفرقة فيما بعد. تدريجيا، بدأت الأفكار والأنماط السائدة في أذهان الناس حول اليهود والتي كانت ذائعة في بولندا في الظهور في روسيا. تجسدت هذه الأفكار في شخصية صاحب الحانة و"يهودي القرية" الجشع المخادع التي ميزت قانون عام ١٨٠٤ واثرت على فكر الكثير من الساسة والكتاب. كان الاعتقاد السائد أن اليهود متخلفون وأن دينهم خطير. انطلاقا من الجهل، صدق الناس الأكاذيب حول التلمود والتشريعات الدينية اليهودية؛ لقد دعمت غرابة اليهود بشكلٍ خاص التحيز ضدهم. من الشهادات الأدبية القليلة المبكرة التي أظهرت بالرغم من الأنماط الكثيرة السائدة في الأذهان قدرا من التعاطف مع اليهود شهادة "*خطابات رحالة روسي*" لنيكولاي كارامزين ١٧٨٩– ١٧٩ (١٧٩١– ١٧٩٧) في رسمه للجيتو اليهودي في فرانكفورت.
حتى مجموعة المتآمرين التي كونت الديسمبريين المتأثرين بحركة التنوير والمؤيدين للإصلاح، وقد أطلق عليهم هذا الاسم بسبب قيامهم بالثورة في ديسمبر ١٨٢٥، وقعت في براثن النظرة السائدة تجاه اليهود. لقد اهتم بافل بيستل (١٧٩٣– ١٨٢٦) باليهود في إطار مشاريعه لإصلاح البلاد. فقد اعتبر أن اليهود حجر عثرة في طريق إنشاء دولة تقدمية لأن ولاء اليهود كان موجها بصفة أساسية إلى بعضهم البعض لا إلى البلاد ويرجع ذلك إلى أن الخاخامات يتمتعون بسلطة كبيرة على اليهود وأبقوا على جميع العناصر التنويرية أو النزاعة للاندماج بالقرب منهم. وأخيرا لأن اليهود يعتبرون أنفسهم الشعب المختار الأفضل من جميع الشعوب الأخرى. رأى بيستل

حلين ممكنين: إما الحصول على موافقة الحاخامات وغيرهم من الزعماء اليهود للعمل سويا مع الحكومة أو طرد اليهود إن أمكن إلى آسيا الصغرى حيث يستطيعون عندئذ إقامة دولة مستقلة. لم يكن بيستيل أول من تطرق إلى فكرة دولة يهودية مستقلة. لكن من الآن فصاعدا سيلعب هذا الاحتمال الذي تمخض عن أكثر النوايا تنوعا واتخذ أشكالا متعددة دورا أعظم مما قدر له.

ظلت الخطوط العريضة لسياسة الدولة تجاه اليهود كما صيغت في عهد حكم الكسندر الأول للإمبراطورية الروسية ولبولندا منذ ١٨١٥ كما هي قائمة في عهد نيقولاس الأول (١٧٩٦– ١٨٥٥). رغم ذلك، ازداد التدخل في أسلوب حياة اليهود بشكل ملحوظ رغم أنه لم يعد مبعثه الوحيد الرغبة في "تعليم" أو "تحسين" اليهود. فرضت المزيد من الالتزامات على اليهود دون منحهم أية حقوق جديدة. على سبيل المثال منذ عام ١٨٣٥ كان على اليهود الالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية وهو واجب لم يتمكنوا من التملص منه إلا بصعوبة بالغة. حتى الصبية ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة كانوا يلتحقون بتدريب قبل–عسكري إلزامي. لأن هذا النوع من الخدمة نادرا ما يتفق مع شعائرهم الدينية، انخرط الكثير من اليهود في المقاومة السلمية ولجأوا إلى المخابئ والفرار من أوطانهم أو حتى تشويه أنفسهم بعد أن أخفقت الاحتجاجات ومحاولات تقديم الرشاوى لتفادي الخدمة العسكرية الإلزامية. هؤلاء الذين كانوا لا يملكون نقودا شوهوا أنفسهم ... فحسب منطقهم الماهر (اليهود من شرق أوروبا) أن تعيش أعرج أفضل من أن تموت موفور الصحة. أكدت هذه النظرة للأمور تقواهم. لم يكن من الغباء وحسب أن يموت الفرد من أجل الإمبراطور، أو القيصر، وإنما كان إثما أيضا أن يحيا المرء حياة مخالفة للتوراة ووصاياها. كان من الخطايا أكل لحم

الخنزير وحمل السلاح يوم السبت والتدريب ورفع اليد ناهيك عن رفع سيف على غريب بريء.[٥٣]

في بواكير عام ١٨٢١، تم إدخال نظام "الإشراف المعبدي" إلى بولندا ومن ثم ألغي *القهال* كمنظمة اجتماعية بعد هذا بعام. في العام ذاته، تم أولا حظر المنظمات أو المجتمعات اليهودية *الهيفرا كادیشا* (المجتمع المقدس) المسئولة عن إقامة مراسم الدفن. في عام ١٨٤٤ قام القيصر نيقولاي بتوسيع نطاق هذه القوانين لتشمل الإمبراطورية الروسية بالكامل. انتوى القيصر حل جميع المنظمات اليهودية المستقلة غير أن محاولاته باءت بالفشل. في مواجهة صعاب جسام، ظلت معظم المنظمات تعمل بشكل غير قانوني- سواء بموافقة السلطات المحلية أم لا. أكد اليهود وجودهم من خلال منظماتهم المستقلة كما احتفظوا بدرجة كبيرة بتمثيل حقوقهم في مجتمعاتهم. بالمثل، تم التحايل على الأوامر المتعلقة بالزي عند اليهود والتي حظرت بشكل كبير ارتداء الرداء اليهودي المميز بصفة يومية. أسهمت هذه الدرجة العالية من الاستقلالية – التي دافعوا عنها تحت ظروف في غاية الصعوبة – بشكل كبير في اتحاد اليهود وتقدير الذات اللذان كانا في جميع الصراعات سمت الحياة اليهودية في شرق أوروبا حتى القرن العشرين.

لم تلغ الضريبة الكوميونية- *الكروبكا*- التي كانت تدفع على الأطعمة الشعائرية والأوعية المستخدمة في المراسم الدينية كلحم الناتج والشموع؛ الأمر الذي صدم الأعضاء الأفقر في المجتمع على وجه الخصوص بصورة قاسية. بل وتحولت هذه الضريبة إلى ضريبة دولة. في عام ١٨٥٦ حدث تحول مؤقت نحو الأفضل في ظل عصر

---

[٥٣] جوزيف روث، "يهود التيه" (١٩٢٧/ ١٩٣٧)، تحرير هيرمان كيستن، الجزء الثالث (كولونيا، ١٩٧٦)، ص. ٢٩٣- ٣٦٩، هنا ص. ٣٤٥ بالكامل.

الإصلاح الذي أقامه ألكسندر الثاني (١٨١٨– ١٨٨١) الذي وضع تصورا لعملية تحريرية "انتقائية" تتم بصورة تدريجية لليهود والذي قلد في كثير من المناحي عصر ألكسندر الأول.[٥٤] على سبيل المثال، كانت التصاريح الصادرة ما بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٧٩ التي تسمح لليهود بمغادرة مقاطعة الاستيطان متاحة "للدوائر الأفضل" في الشعب اليهودي بروسيا: أي التجار من الدرجة الأولى وحاملي الشهادات الأكاديمية ومهنيين منتمين للنقابات وأخيرا أي شخص حاول الالتحاق بجامعة أو مؤسسة تعليمية مماثلة. في عام ١٨٦٧ منح الجنود المسرحون– معظمهم كان قد قضى في الخدمة العسكرية عشرين عاما أو أكثر– حق حرية الحركة. بيد أن الأمر لم يتجاوز كونه طفرة متواضعة للطبقات الدنيا.

وجد اليهود بعض الراحة والهناء في الريف. تحت ظروف معينة كان يسمح لهم ببيع المشروبات الكحولية مرة أخرى. كان يسمح لهم أيضا الاشتراك دون قيد في *التسيم تسفا* – أجهزة للحكم الذاتي المحلي أدخلت عام ١٨٦٤ بصدور قرار إصلاح النظام القضائي أو في قانون الخدمات العسكرية العالمي لعام ١٨٦٤. اختلف الأمر فيما يتعلق بالإصلاح الريفي لعام ١٨٧٠ حيث لم يستطع اليهود سوى تأليف ثلث الممثلين حتى حين كانوا يشكلون غالبية الشعب، ولم يكن باستطاعتهم أيضا تولي منصب رئيس البلدة.

أمدت نشوة الإصلاح في هذا العصر يهود روسيا بالأمل في تحسن أوضاعهم. أصبحت نسبة الحضور في المؤسسات التعليمية للدولة أعلى من ذي قبل. تجلت محاولات الاندماج في كل مكان. بيد أنه في ظل البيروقراطية القيصرية كانت هناك ميول مضادة لذلك

---

[٥٤] بينيامين ناثانز، "الصراع والمجتمع ويهود بطرسبرج في أواخر القرن التاسع عشر"

الاندماج. على سبيل المثال في أبريل من عام ١٨٨٠ صدر منشور وزاري إمبراطوري يطالب بأن يجمع كل الحكام في اتحاد بولندا معلومات حول الرأسماليين اليهود الذين- كما كان معروفا للجميع- كانوا "جزءا من القهال الدولي الذي تأسس بنوايا معادية للمسيحية بشكل واضح" إذ كانت هناك مزاعم أن اليهود دفعوا مساهمات لهذه المنظمة ودعموا حزبا ثوريا.[٥٥]

وضع اغتيال الكسندر الثاني في مارس ١٨٨١ نهاية مفاجئة لجميع الآمال. في كثير من الأماكن كانت تثور ثائرة الفلاحين الروس وطبقة البرجوازيين الصغار عند سماع أن اليهود كانوا وراء الهجوم الإرهابي واغرقت موجة جديدة من أعمال العنف البلاد مما جعل من الواضح بشكل لا يدعو للشك عدم وجود أية إمكانية للاندماج أو حتى للتكامل. بنفس الطريقة، توصلت التحقيقات المتوالية في أعمال الشغب إلى أن اليهود كانوا هم المسئولون.: فقد استفزوا رد الفعل هذا من خلال "تعصبهم الديني" واستغلالهم الماكر من خلال الربا للشعب من غير اليهود. منذ عام ١٨٨٢ بدأ الحد بشكل كبير من حقوق اليهود مرة أخرى. فرض الحظر على إقامة مستوطنات جديدة أو إبرام عقود جديدة للإيجار في الريف. في المؤسسات التعليمية للبلاد لم يكن من الممكن لنسبة المتعلمين من اليهود أن تتجاوز نسبة ضئيلة محددة. ظل امتهان القانون محظورا على اليهود. كما حرم اليهود من حق التصويت لانتخاب أجهزة الحكم الذاتي بالمقاطعات والمدن. في التسعينيات من القرن التاسع عشر، اضطر الجنود والحرفيون والتجار اليهود- باستثناءات قليلة- إلى ترك مدينة ومقاطعة موسكو والعودة إلى مقاطعة الاستيطان. ظل هذا

---

[٥٥] فرانسوا جيزنيت قدم لي بسخاء هذا المصدر. يعكس هذا المصدر نفس نمط التفكير الذي تشتمل عليه "بروتوكولات حكماء صهيون" الزائفة.

التميز المهين قائماً حتى اندلاع ثورة ١٩١٧. كان داخل جهاز الحكومة بالتأكيد من يتمنى- لأسباب انسانية أو براجماتية أي اقتصادية – على الأقل الإلغاء التدريجي للقوانين غير العادية. رغب وزراء المالية بشكل خاص في التخفيف من حدة هذه التشريعات، فقد كانوا يعلمون أن اليهود من شأنهم أن يكونوا عاملاً اقتصادياً هاماً في الامبراطورية كما خشوا من أن الاستمرار في انتهاج السياسات المعادية للسامية قد يكون له آثار سلبية على النطاق الدولي من جراء تأثير المصرفيين اليهود بالخارج. من الحوارات الدالة في هذا الصدد النقاش الذي جرى بين وزير المالية الشهير سيرجي ويتي (١٨٤٩- ١٩١٥) والقيصر الكسندر الثالث (١٨٤٥- ١٨٩٤)حيث سأل القيصر ويتي إن كان يتعاطف مع اليهود فرد عليه ويتي بأن ساله إن كان من الممكن إغراق كل اليهود في البحر الأسود وأضاف قائلاً إن لم يكن هذا ممكنا فعلى اليهود أن يكونوا قادرين على "العيش". كان هذا يعني أنه في النهاية ينبغي منحهم نفس الحقوق شأنهم شأن جميع رعايا القيصر الآخرين.[٥٦]

لم يكن من الممكن الاستمرار في إجراء التحسينات الجوهرية. بيد أنه نتيجة لثورة عام ١٩٠٥، حصل اليهود على الأقل على حق التصويت في انتخاب أول برلمان منتخب، الدوما وذلك في عام ١٩٠٦. في السياسات العملية كان هناك بعض التساهل. على الجانب الآخر، اشتدت موجة العداء للسامية بين صفوف الدوائر المحافظة كرد فعل على الخطر المحدق للرأسمالية وجهود الإصلاح الاجتماعي. اشتدت موجة العداء هذه بشكل كبير لدرجة أن بعض العناصر المعتنقة لآراء متطرفة – الذين كانوا يتمتعون بقدر من التمثيل في بعض المناصب بالهيئات- طالبوا بالقيام بأعمال عنف

[٥٦] مانفريد هيلدرماير

ضد اليهود أو قاموا بتنظيم هذه الأعمال بأنفسهم. كانت من أكثر الأعمال الصادمة اعمال العنف في كيشينيف في عام ١٩٠٣ وإبان ثورة ١٩٠٥ حيث أقيمت محاكمة مينديل بيليس (١٨٧٤– ١٩٣٤) الذي وجهت إليه تهمة قتل طفل مسيحي واستعمال الدماء البشرية في الشعائر الدينية غير أنه في النهاية تمت تبرئته عام ١٩١٣. في الحرب العالمية الأولى ألغيت مقاطعة الاستيطان– غير أن هذا لم يكن رد فعل على المعاقين الذين تم فرضهم على اليهود بل خوفا من أن يتعاون اليهود مع العدو. فقد كان جزء كبير من المنطقة التي سكنها اليهود يشكل مركز العمل العسكري. فر مئات الآلاف من اليهود قبل أن يبدأ القتال أو أعمال النهب ومصادرة المؤن. روجت الدوائر المعادية للسامية بين الديمقراطيين الوطنيين البولنديين وأركان الحرب الروسي هذه الاتهامات بالتعميم على أساس حالات فردية حقيقة بأن اليهود يتجسسون لصالح ألمانيا والنمسا–المجر. نتيجة لذلك، اندلعت أعمال العنف في عدد من الأماكن. تبنت الحكومة القيصرية العسكرية بشدة وجهة النظر القائلة بأنه ينبغي طرد اليهود إلى تلك المناطق من مقاطعة الاستيطان التي لم تطولها يد الحرب. نظرا لأن الأحوال في هذه المناطق لم تكن محتملة، قامت الحكومة في أغسطس من عام ١٩١٥ بإلغاء مقاطعة الاستيطان، بل وسمحت لليهود بالإقامة في مناطق أخرى، في الواقع تقريبا في أي مكان في الإمبراطورية (بيد أن الأمر لم يتسم بالحرية المطلقة). لقد جرت عمليات طرد وإبعاد اليهود بنصيب وافر من العنف. في بعض الأحايين، اضطر اليهود للعيش بأراض تابعة العدو بالقرب من جبهة القتال. أما هؤلاء الذين تمكنوا بعد ذلك من العودة للبلاد فغالبا ما كانوا يجدون منازلهم يسكنها غير اليهود.

كان على الجنود اليهود في جيش القيصر تحمل الكثير من أشكال التمييز. علاوة على ذلك، في المناطق البعيدة عن السواحل

وفي المدن الكبرى انتشرت الشائعات التي تروج لليهود بوصفهم "متربحين من الحروب" وبذلك تشتت الانتباه بعيداً عن هؤلاء الذين كانوا مسئولين بالفعل عن المصاعب الاقتصادية.[٥٧] في النهاية، وضعت الثورة الناجحة التي قامت في فبراير ومارس من عام ١٩١٧ نهاية لجميع القيود المفروضة على اليهود: أصبح اليهود الآن مواطنين روسيين يتمتعون بحقوق مساوية لغيرهم. في الجمل كانت التشريعات الإمبراطورية الروسية تطبق أيضاً على اليهود في مملكة بولندا مع اختلافات طفيفة في بعض القوانين الفردية. لفترة وجيزة، استطاعت بولندا أن تسلك طريقاً خاصاً بها. في مايو من عام ١٨٦٢، تم وقف جميع أشكال التمييز الأساسية ضد اليهود فيما يتعلق بالحقوق المدنية، وتم إقرار المساواة في الحقوق. لم يكن هذا الأمر بعيد الصلة عن المقاومة البولندية المعارضة لضم بولندا إلى الإمبراطورية الروسية. فأثناء تقسيمات بولندا، شارك الكثير من اليهود في الثورات التي قامت ضد نظام القيصر. في ثورة ١٨٣٠، والتي لم يكتب لها النجاح، شارك الكثير من اليهود في أعمال النضال. في ظل التوجه الديموقراطي الذي تبنته "الهجرة العظيمة" تبنى المؤرخ جواشيم ليليويل (١٧٨٦– ١٨٦١) قضية الحقوق اليهودية. في المناصب الحكومية العليا ساد الاعتقاد بأن العمل ضد هذه الرابطة يخدم مصالحهم. كان "التحالف" الذي عقد بين يهود وارسو ومناضلي التحرر البولنديين بمناسبة إحياء ذكرى الضحايا الذين سقطوا أثناء مسيرتهم في مظاهرة مناهضة لروسيا في ٢٧ من فبراير

---

[٥٧] هنا أدين لرسالة الماجيستير غير المنشورة الخاصة بفرانك مايكل شوستر وعنوانها "الحرب على الجبهة "الوطنية"- ألمان ويهود روسيا في منطقة الحرب بغرب روسيا ١٩١٤- ١٩١٦" (جيسين، ١٩٩٧).

عام ١٨٦١ القشة التي قصمت ظهر البعير. نظراً للاضطرابات المتصاعدة بين الأهالي، حاولت السلطات القيصرية والبولندية على الأقل تهدئة وطأة الشعور بالنقمة والسخط بينهم وبالتالي إضعاف حركة الاحتجاج. لقد كللت جهود التهدئة هذه إلى حد ما بالنجاح كما تبين أحداث ثورة عام ١٨٦٣. غالبا ما أدى موقف المحيطين بكونت ألكسندر فيلوبولسكي (١٨٠٣- ١٨٧٧) - مستشار الثقافة الذي أصبح فيما بعد رئيسا للحكومة المدنية في بولندا- إلى الحصول على بعض الامتيازات لصالح اليهود بإقناع القيصر ألكسندر الثاني بالفوائد التي سيجنيها من وراء مثل هذه الإجراءات. لقد أرادوا بهذا تكثيف جهود الاندماج بين السكان اليهود وإطلاق العنان لأنشطة المقاولين والمصرفيين اليهود. بعد ذلك بعشرين عاما بصدور قوانين مايو ١٨٨٢ التي توسعت لتشمل بولندا التابعة لروسيا، أصبحت مراعاة المصالح القانونية لليهود أمرا من الماضي.

يهود شرق أوروبا خارج حكم القيصر

بينما أدت كارثة عام ١٦٤٨ إلى إضعاف دور الوسيط الذي اضطلع به اليهود بين الريف والمدينة في بولندا، لم تؤد تبعات حرب الثلاثين عاما في بوهيميا ومورافيا إلا إلى التطور الكامل لهذا الدور. كانت الطبقة العليا من النبلاء، التي كانت في ذلك الوقت منخرطة بصورة متزايدة في المجال الاقتصادي، تجلب التجار اليهود الذين قاموا بشراء المنتجات الزراعية والتجارية للأراضي المملوكة لهذه الطبقة وقايضوها بمنتجات من المدينة. أصبح اليهود من تجار الجملة إلى الحرفيين والباعة الجائلين أو "جائلي القرى" - كما كانوا في بولندا- مركز نظام التداول الاقتصادي الذي كان يربط بين الفلاحين والنبلاء وأهالي المدن ناهيك عن النقابات العمالية (بما فيها النقابات العمالية لليهود في مدينة براغ). علاوة على ذلك "أوكلت" طبقة النبلاء معامل التقطير الخاصة بها وغيرها من الأعمال إلى اليهود حتى تمتع

اليهود بالاحتكار الكامل لهذه الأعمال في نهاية الأمر. بينما أخذت أحوالهم الاقتصادية في التحسن، بدأ اليهود في الريف ، خاصة في بوهيميا، في تنظيم أنفسهم بصورة أفضل. لقد كان يهود مورافيا يملكون بالفعل تنظيما إقليميا منذ القرن السادس عشر. كانت الجماعات اليهودية في بوهيميا تتبع الجماعة اليهودية بمدينة براغ. شعرت الجماعة اليهودية في بوهيميا بأنها محرومة من الامتيازات فيما يتعلق بتخصيص الأعباء الضريبية وقرروا أخيرا في عام ١٦٥٤ أنهم أيضا ينبغي أن يحصلوا على تنظيم إقليمي مماثل. اضطلعت هذه الجهة التي اكتمل إنشاؤها عام ١٦٥٩ بمسئولية إدارة الضرائب وغيرها من القرارات الهامة خارج مدينة براغ. رغم هذا، ظلت مدينة براغ عاصمة لليهود. أثناء القرن الثامن عشر من بين يهود بوهيميا المقدر عددهم بحوالي ٤٠.٠٠٠- عاش حوالي ٢٥.٠٠٠ في مورافيا- وعاش قرابة ١٠.٠٠٠ يهودي وربما أكثر من ذلك في العاصمة. بذلك شكل اليهود حوالي ثلث السكان وكونوا أكبر جماعة يهودية مدنية. مقارنة بذلك، في فرانكفورت في منتصف القرن السابع عشر كان هناك ألفا يهودي وفي فيينا ٣.٠٠٠ وفي برلين عدد يقل بقليل عن ٤.٠٠٠ يهودي. فقط قبيل القرن الثامن عشر بدأت المستوطنات اليهودية في المدن البولندية (بما فيها جاليشيا الحمراء) في النمو. قامت السلطات الحاخامية الشهيرة بالتدريس في مدينة براغ، وكان اليهود خاصة الأشكيناز يعتبرون أنه من الأفضل الدراسة في إحدى *اليشيفوت* الكثيرة في براغ. كان الاسم الشرفي الذي أطلق على "المدينة اليهودية" في براغ في ذلك الوقت لا يزال "أم إسرائيل". منذ وقت مبكر سعت الطبقة العليا من اليهود الأثرياء إلى محاكاة أسلوب الحياة الذي ينتهجه المواطنون المسيحيون في المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي. عند إعادة بناء المدينة بعد الحريق المدمر الذي نشب بها عام ١٧٥٤، جعلت منازل اليهود الأثرياء المشيدة على

الطراز الباروكي التناقض مع المناطق البائسة التي يسكنها فقراء اليهود أكثر جلاء.

لم ينجح تألق مدينة براغ والمهام الاقتصادية الرائعة التي قام بها في الريف اليهود – "الدخلاء" كما كان يطلق عليهم أهالي براغ بشيء من الكبر – في إخفاء حقيقة عدم تحسن الوضع القانوني لليهود بأي شكل من الأشكال. تحت وطأة الضغوط التي مارستها الجماعات ذات المصالح الاقتصادية في عامي ١٧٢٦/ ١٧٢٧ قام إمبراطور أسرة هابسبورج الحاكمة آنذاك تشارلز السادس (١٦٨٥– ١٧٤٠) بالتصديق على "قانون العائل" المشين. في بوهيميا لم يكن يسمح لعددٍ الأسر اليهودية أن تزيد على ٨.٥٤١ وفي مورافيا كان مسموحا بوجود ٥.١٠٦ أسرة. كان من غير الممكن إصدار تصريح جديد للزواج سوى بعد وفاة عائل "لعدد معين من الأفراد يشكّلون أسرة واحدة". من ثم ، كان هذا القانون يعني أن ولدا واحدا فقط من أبناء الشخص المتوفي كان بإمكانه الزواج والحصول على تصريح بالإقامة، أما بقية الأبناء فكان عليهم إما البقاء بلا زواج أو السفر للخارج. تبع هذا القانون فرض عدد آخر من القيود على اليهود.

في نفس الفترة مر اليهود القاطنون في الريف ومنظماتهم بفترة تدهور. بطبيعة الحال، حاول اليهود بكل السبل الممكنة التحايل على "قوانين العائل". لكن بالنسبة للكثيرين منهم – إن كانوا لا يرغبون في الهجرة أو لم يكن بحوزتهم الأموال الكافيةٍ للإعفاء من هذا القانون– كان المخرج الوحيد هو الزواج سرا وفقا للشريعة اليهودية. عرفت حالات الزواج هذه باسم *بودن هاسنز* لأنها كانت تتم في العلية *[بودن]*. اعتبرت السلطات أن الأبناء ثمرة هذا النوع من الزواج أبناء غير شرعيين. للمرء أن يتصور حالة الحزن التي سادت بسبب هذه الظروف. حتى بعد سن "قانون العائل" لم تخفت الأصوات المطالبة بتقليص عدد السكان من اليهود بشكل أكبر أو حتى طردهم

بالكامل- مثلما جرت العديد من المحاولات لفعل ذلك في العصور الوسطى. كان لجهود ممثلي الكنيسة دور كبير في إقناع ماريا تيريزا (١٧١٧- ١٧٨٠) لتقرر أخيرا طرد كل اليهود من بوهيميا. في ديسمبر ١٧٤٤، اضطر يهود براغ أولا للرحيل عن المدينة بغض النظر عن كونهم في فصل الشتاء أو حالتهم الصحية أو عمرهم. بيد أن الكثيرين رأوا في هذا الموقف تماديا كبيرا حتى أن خصوم اليهود بالمدينة القديمة غيروا رأيهم. سرعان ما ظهرت المثالب الاقتصادية لمثل هذا الإجراء، خاصة لأن التجار المسيحيين لم يكونوا في وضع يسمح لهم أن يحلوا محل اليهود. في عام ١٧٤٨ رضخت ماريا تيريزا للاحتجاجات المحلية والأجنبية – حتى من جانب البابا- وسمحت ليهود براغ بالعودة إلى ديارهم، رغم أنها عودة إلى ديار تعرضت للنهب منذ وقت طويل. لمدة مبدئية بلغت ١٠ سنوات سمحت ماريا تيريزا لليهود بالبقاء في أراضي مملكة بوهيميا شريطة أن يدفعوا مبلغا كبيرا من المال.

كان "مرسوم التسامح" الذي قدمه الإمبراطور جوزيف الثاني ليهود بوهيميا وموراڤيا في ١٧٨١/ ١٧٨٢ – لأسباب اقتصادية ومبررات تتعلق بالسياسة الخارجية بصفة أساسية – مليئا بالتناقضات. بالفعل ألغيت الكثير من الأحكام والقيود التي تنطوي في جوهرها على تمييز ضد اليهود وبالتالي تحسن النشاط الاقتصادي. بيد أن هذا الأمر عاد بالنفع بصفة أساسية على الطبقات الاجتماعية الثرية التي كانت مستعدة للاندماج وفي واقع الأمر – تماما مثلما فعل فلاسفة حركة التنوير اليهود- استقبلوا هذه الإصلاحات بترحاب شديد. علاوة على ذلك، تربحت هذه الطبقات من الوضع الاقتصادي القائم آنذاك. في عام ١٨٠٧ كان اليهود يملكون خمسة عشر مصنعا للنسيج من بين ثمانية وخمسين مصنعا بالبلاد.

بيد أن عامة اليهود كانوا لا يزالون يرزحون تحت وطأة الضرائب الجائرة المفروضة عليهم و"قانون العائل" ومن الحظر على حرية الحركة الذي لم يخفف سوى بشكل طفيف وفوق كل هذا من الأحكام التي حددت مهلة معينة يتعين بعد انقضائها استخدام اللغة الألمانية فقط في المراسلات الرسمية والتجارية. على نفس النهج في عام ١٧٨٧ كان على اليهودي أن يختار اسما ألمانيا له ولقبا ألمانيا للعائلة. أثارت الخدمة العسكرية الإلزامية التي أدخلت عام ١٧٨٨/ ١٧٨٩ الكثير من الاضطرابات. فأثناء تأدية الخدمة العسكرية، كان يدنس يوم السبت المقدس وتنتهك التشريعات اليهودية الخاصة بالطعام ولم يكن من الممكن إقامة بعض الشروط الشعائرية الأخرى. كان "الاختباء تحت الأرض" والفرار وحتى تشويه الذات هو التصرف السائد بين فقراء اليهود الذين لم تكن امامهم فرصة للتملص من الخدمة العسكرية عن طريق الرشوة. أثناء القيام "برحلة" إلى الخارج ربما من أجل تحاشي تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية قام اثنان من تابعي جيكوب فرانك – أبناء اثنين من اليهود الأثرياء من مدينة براغ – بزيارة مدينة أوفنباخ واكتشاف الدجل الذي كانت تقوم به ابنته إيفا فرانك الذي كان قد صرح أبوها بأنها الألوهية المجسدة. كان للفرانكيين أتباع كثر في بوهيميا وموراڤيا. كان الفرانكيون في مدينة براغ يأملون في أن تحين نهاية العالم عام ١٨٠٠ وعندما لم يتحقق هذا اندلعت الاضطرابات التي ترجع على ما يبدو إلى الشعور بالضيق الذي انتاب اليهود الأرثوذوكس لأن الفرانكيين لم يكونوا ليرجعوا إلى حظيرة الأرثوذوكسية حتى بعد حدوث ذلك.

في المجمل أدت تطورات الأحداث في القرن الثامن عشر إلى الانحلال التدريجي للمجتمع اليهودي التقليدي. اندمج غالبية اليهود المتعلمين والمنتمين للطبقة الاقتصادية العليا في المجال الثقافي الألماني وإن يكن بخصائصهم المميزة. لقد لعب يهود شرق أوروبا (أوست

يودن) دوراً ثانوياً في بوهيميا وموراڤيا رغم أن اليهود البولنديين كانوا قد فروا إلى هناك بعد عام ١٦٤٨. لقد احتل يهود هذه الأراضي مكانة خاصة بين الغرب والشرق.

لقد تشكل نموذج اليهودي شرق الأوروبي في ظل مملكة الاتحاد البولندي الليتواني بعد عام ١٦٤٨، ففي منتصف القرن الثامن عشر كان هناك حوالي ٧٥٠.٠٠٠ يهودي يعيشون هناك وهو ما يمثل حوالي ٧% من السكان. مع تقسيمات بولندا المتوالية وجد اليهود أنفسهم يعيشون في أراض تنتمي لقوى سياسية مختلفة. أما خارج نطاق السيادة الروسية، فقد عاش معظم يهود شرق أوروبا في مملكة أسرة هابسبورج الحاكمة – غالبا في جاليشيا. دفعهم هذا إلى الوعي البالغ بمعنى التسامح تجاه اليهود بمعناه المستبد التنويري: كان عليهم التخلص من "خصائصهم المميزة" و"تحسين" أنفسهم وأن يصبحوا "نافعين". قبل معاناة اليهود في بولندا الروسية أو في روسيا نفسها، كان على اليهود في مملكة هابسبورج الدخول في صراع مع إجراءات تشريعية شاملة تنطوي على تدخل صارخ في حياتهم اليومية. منذ عام ١٧٧٣، كان يتعين تصديق الحاكم النمساوي على عقود الزواج بين اليهود. كان يسمح فقط للابن الذكر بالزواج ويصبح بذلك "العائل" كما كان الحال في بوهيميا وموراڤيا. علاوة على ذلك، في عام ١٧٨٥ كانت تراخيص الزواج ترتبط بمستوى معين من التعليم الألماني. منذ عام ١٧٧٦، حظر على اليهود إدارة الحانات أو حيازة الأراضي بالاستئجار. في عام ١٧٨٩ أصدر جوزيف الثاني "مرسوم التسامح" الخاص به الذي قلص نطاق الإدارة الذاتية لمجالس القهال وقام بالتشديد على المحظورات الاقتصادية وفرض قيودٍ على المستوطنات وجعل من اتخاذ لقب ألماني للعائلة أمرا إجباريا وأكد على السياسة الصارمة للزواج. عادت حركة التنوير للظهور مرة

أخرى في شكل مهمة وتم فرضها قسراً على الثقافة اليهودية التقليدية.

ناضل الحسيديون واليهود الأرثوذوكس في جاليشيا بضراوة ضد جميع الميول التنويرية حتى بين اليهود أنفسهم. شاركت الحكومة في تلك الحركة التنويرية وفي عام ١٧٩٧، بناء على اقتراح التقدميين من اليهود، فرضت ضريبة "الشموع" على الشموع التي تضاء أيام السبت وأيام الأعياد و ظلت هذه الضريبة سارية حتى عام ١٨٨٤. مثلت هذه الضريبة عبئًا ثقيلاً على الفقراء من أعضاء الجماعة اليهودية. فقد كان اليهود بالفعل يدفعون ضرائب أعلى من بقية أفراد المجتمع. كان اليهود أيضا يخضعون للخدمة العسكرية الإلزامية ولم يستطع سوى الأثرياء من اليهود التملص منها بدفع الرشاوى. جاء رد فعل الكثير من اليهود على فرض الخدمة العسكرية الإلزامية بالهروب خارج البلاد. بهذه الطريقة، تقلص عدد السكان اليهود بجاليشيا فوفقاً لتقديرات مختلفة – وإن كانت مثيرة للجدل – تقلص عدد اليهود بجاليشيا من ٢٢٥.٠٠٠ (عام ١٧٧٣) إلى ١٤٥.٠٠٠ (عام ١٧٧٧). فيما بعد، بدأت أعداد اليهود في التزايد مرة أخرى ومن الأسباب الرئيسية لذلك زيادة مساحة الأراضي الخاضعة للملكة نتيجة تقسيم بولندا الثالث حيث وصل عدد اليهود بحلول عام ١٨٠٣ إلى حوالي ٤٠٠.٠٠٠ يهودي. تزوج الكثير من اليهود أيضاً سرا وتهربوا من الخدمة العسكرية بشكل غير قانوني.

لقد جلب التنظيم الجديد للبلاد منافع اقتصادية لليهود. فقد تربح اليهود آنذاك من المعاملات التجارية المتزايدة بين روسيا ومملكة هابسبورج. فوق كل هذا، أصبحت مدينة برودي الحدودية مكانا رئيسا لتبادل السلع "برأس المال اليهودي" الآتي من جاليشيا.[٥٨]

[٥٨] ديبنو، تاريخ العالم، الجزء الثامن، ص. ٣٠١ (وفقاً لتقرير روسي صدر عام ١٨١٠). كانت برودي بالقرب من مدينة لفيف هي مسقط

من حيث المبدأ، سادت ظروف مشابهة في بوكوفينا اللتي تنازل عنها الأتراك للنمسا عام ١٧٧٥ ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءا من جاليشيا . في ذلك الوقت بدأ العدد القليل لليهود – تراوحت التقديرات من ١.٠٠٠ إلى ٣.٠٠٠ – في التزايد بشكل سريع.

في هنغاريا لم يكن هناك تقريبا أي يهود شرق أوروبيين. من الممكن مقارنة الظروف السائدة والمستوطنات اليهودية هناك في العصور الوسطى على الفور بمثيلها في بولندا . في عام ١٢٥١ قام الملك بيلا الرابع (١٢٠٦– ١٢٧٠) بإصدار ميثاق مزايا من أجل إعادة إعمار البلاد بالسكان بعد الهجوم المغولي عليها . رغم أن الملك بعد ذلك قام بحماية اليهود من الكنيسة لأنهم كانوا يدفعون مبالغ كبيرة كضرائب وكانوا يمدون المملكة بالكثير من الأموال التي تحتاجها . غير أن العلاقة لم تخل تماما من الصراع. في عام ١٣٦٠ تم طرد اليهود حتى من هنغاريا لفترة وجيزة وذلك بعد أن باءت محاولة قام بها الملك لاجوس (١٣٢٦– ١٣٨٢) لتنصيرهم بالفشل. لم يخفق هجوم الكنيسة على اليهود في التأثير على عامة الشعب ، فقد سجل التاريخ قيام العديد من أعمال العنف نتيجة لذلك. بعد هزيمة هنغاريا على يد الأتراك في معركة الموهاك في عام ١٥٢٦ أطلق الكثيرون العنان لحنقهم في المناطق التي كان يسكنها اليهود بالمدينة. تم طرد جزء كبير من السكان اليهود من هذه المناطق. في عام ١٧٨٥ لم يكن هناك سوى حوالي ٨٠.٠٠٠ يهودي بهنغاريا .

كان الوضع مواتيا للغاية لليهود في إمارة ترانسيلفانيا حيث ظهرت الكثير من الاتجاهات الدينية الشائقة. على سبيل المثال ظهرت هناك السبتية وهي خليط من اليهودية والمسيحية فيها يكون

رأس جوزيف روث. كان صاحب الحانة الشخصية المحورية في روايته "تاراباس" (فرانكفورت ، ١٩٨٧) مبنياً على شخصية حقيقية ليهودي موسر عاش بتلك المدينة.

السبت اليهودي (أي يوم السبت) هو اليوم المقدس بدلاً من يوم الأحد. رغم كل هذا لم تتشكل هناك أية "شخصية ثقافية مميزة" مماثلة لشخصية يهود شرق أوروبا في بولندا. منذ القرن الثامن عشر، قام اليهود بالهجرة التدريجية بصفة أساسية من جاليشيا. لم تكن سياسة أسرة هابسبورج الحاكمة التي حكمت البلاد منذ انسحاب الأتراك في نهاية القرن السابع عشر ودودة تجاه اليهود. في فترة "التسامح" الاستبدادي دار الصراع كما هو الحال في الأماكن الأخرى حول الخدمة العسكرية الإلزامية وحرية اليهود في التجارة. في جميع أراضي مملكة هابسبورج، ارتفع عدد السكان اليهود من أقل من ٤٠٠.٠٠٠ عام ١٧٨٥ إلى حوالي مليون عام ١٨٠٣. كان نموذج "اليهودي الغربي" لازال سائدا.

في اثناء ذلك، تطورت مستعمرات يهود شرق أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر في واليشيا ومولدافيا. كانت تلك الإمارات الرومانية آنذاك تخضع للحكم التركي. في الأساس، هاجر إلى هاتين الإمارتين بشكل أساسي اليهود السفارديم عن طريق منطقة البحر المتوسط وسالونيكا. في ذلك الوقت، قام الأمراء والسادة الإقطاعيون من النبلاء، البوير، بجلب اليهود ليسكنوا المناطق التي بها أعداد قليلة متفرقة من السكان كما حدث من قبل في بولندا. قدم هؤلاء اليهود من جاليشيا وأوكرانيا. من العوامل التي أسهمت في حدوث هذه الهجرات اندلاع ثورات الهايدماك والوضع الجديد في جاليشيا بعد التقسيم الأول لبولندا. كان اغلب المستوطنين بهاتين الإمارتين من الحسيديين. نما عدد السكان اليهود في سنوات قليلة من ٣٠.٠٠٠ إلى ٥٠.٠٠٠ ثم إلى ٨٠.٠٠٠ نسمة. استقر معظم هؤلاء اليهود في مولدافيا – بصورة رئيسية في إياسي– واستقرت أعداد قليلة في واليشيا بالقرب من بوخارست. غير أن أمل اليهود

في العثور على وطن يعمه السلام لم يتحقق كما تورط اليهود هنا أيضاً في صراعات عسكرية- هذه المرة بين الروس والأتراك.

كان هناك تطور مثير للأحداث في بولندا التابعة لبروسيا. تحت تأثير الظروف الجديدة - خاصة الاتصال باليهود الألمان والفرص الاقتصادية السانحة التي رجحت من كفة الميل تجاه الاندماج- تحول يهود شرق أوروبا هناك بشكل تدريجي إلى "يهود غربيين". بيد أن النزعة الأرثوذوكسية ظلت تطغى على إيمانهم وأقاموا صلات متعددة مع اليهود في الأراضي الأخرى من بولندا المقسمة.

obeikandl.com

الجزء الثالث

أزمة اليهود في أوروبا الشرقية